

كتب للجميع

عشرة أيام في السودان

بقلم
محمد هيثم باشا

جميع الحقوق محفوظة



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع • جريدة المصري ٦

فهرس

٥	اهداء الكتاب
٦	مقدمة
٩	من مصر الى الخرطوم
٢٢	الخرطوم من النظرة الاولى
٣٥	عيد الملك
٤٣	حكومة السودان
٥٤	يوم بام درمان
٦٥	حفلة افتتاح خزان سنار
٧٠	العودة الى الخرطوم
٨٢	خزان سنار
٩٧	يوم في جبل الاولياء
١١٥	عشية الاوبة
١٢٦	مصر والسودان

إهداء الكتاب

الى اهالى السودان

شكر وتحية

محمد حسين هيكل

مقدمة

ليس في هذا الكتاب شيء أكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه . فهو مجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتها أثناء رحلتنا القصيرة بالسودان . وهي قصيرة حقاً لانها لم تتجاوز عشرة أيام . وعشرة أيام امد قصير لا يستطيع الانسان فيه ان يلم الماما صحيحا بكل ما يقع تحت نظره كما لا يستطيع تحقيق كل ما يصل الى مسامعه . لكنها مع ذلك تسمح بالوقوف على كثير مما لم يكن للانسان به علم ، كما تسمح بتحقيق كثير مما كان الانسان يتخيله تخيلاً ، وربما كان لصحفي مثلي حظ لا يتاح لغيره يمكنه من الوقوف على كثير من الاشياء . فالصحفي منظور اليه من الناس جميعاً على أنه كلمة الناس جميعاً . اليه يذكرون ملاحظاتهم وآراءهم ويثيرون شكواياتهم وهمومهم ويبدون آلامهم . ثم هم يتسابقون في اجابته الى ما يطلب الوقوف عليه لعلمهم انه سيذيع ذلك للناس جميعاً .

على ان ذلك ليس وحده هو الذي دفعني الى تدوين هذه الملاحظات والمعلومات التي وقعت عليها اثناء مقامي عشرة ايام بالسودان . فلقد سافرت قبل اليوم الى غير السودان من بلاد مجاورة لنا يعيننا امرها عناية كبرى وفكرت في ان اكتب شيئاً عنها ثم ترددت وانتهى بي التردد الى الاحجام . وهذه سرورياً اقرب لنا من السودان زرتها مرات واقمت فيها في كل مرة اكثر مما اقامت بالسودان ، بل اضعاف ما اقامت بالسودان . ومع ذلك ، ومع عناية المصريين بكل ما يدور في سوريا ، لم ارمأ ان يدفعني الى ان اكتب عنها مثل ما اكتب اليوم عن السودان . ولعل اكبر السبب في هذا راجع الى ان لدى المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عن سوريا واحوالها وما يدور فيها والى ان السوريين انفسهم يكتبون عن بلادهم وعن احوالها ما يزيد في الدقة على كل ما يمكن ان يكتبه

سائح قضى مدة قصيرة في ربوعهم ثم لعل ثمت سببا آخر . ذلك أن بين مصر والسودان رابطة طبيعية هي النيل ابو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بوادي الضيق الخصب المتصل أوله بآخره بآثار التاريخ الخالدة على التاريخ . هذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين ابنائه من رابطة الاخوة ما ان عقوه يوما فلن يزال رابطة تربطهم ويجب ان تنتهى الى خير ما تنتهى اليه مودة ذوى القربى .

ثم ان السودان على متاخمته لمصر رعلى امتلاء قلوب المصريين باسمه وبذكره بعيد عن أن تكون منه في اذهانهم صورة مضبوطة . فمنهم من يخاله بلادا جرداء لاتصلح لمقام ولا يمكن أن تكون الا منفى لمن غضب عليه الأمر في أرض مصر . ومنهم من يتوهمه مقام همج لا أمل فيه لرواج زراعة أو صناعة أو تجارة . وكثيرا ما روى عنه الراوي أن أهله أشد الناس عداوة للسعى والعمل ، وانهم لا يريدون من الحياة الا بلغة تقيم الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ، وليس الى المقام بينهم باسم المدينة أو التعمير سبيل . وهذه الأفكار وما اليها من مثلها تروج في مصر ، ومنها كثير فاسد أشد الفساد وضار بالمصريين انفسهم المفع الضرر . فليس بد اذن من ان يكون المصريون لانفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن ان تلونها شهوات الساسة ثم ان مسألة مياه النيل وألوية مصر التاريخية في الانتفاع بها ، وامكان توزيعها لتكفى مصر والسودان جميعا أمكانا فنيا ، وما قد يقوم في وجه ذلك من عقبات سياسية ، وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض ، وعلى احتفاظ كل منهم ازاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة - كل ذلك جعلنى أوجه حفا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة التى لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتى كانت وما تزال سببا لنشج

الدعوة التي تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء .
ولقد جعلتني صفتي كصحفي اشعر بثقل حمل الواجب الملقى
على عاتقي . فسعيت بكل ما لدي من جهد لارى ولاسمع ولاحقق
ولاصل الى الفكرة التي اقتنع بصحتها في كل مسألة ا تعرض
لها . ولذلك لم أقف من ملاحظاتي عندما جمعت في عشرة الايام التي
أقمت بالسودان . بل جاهدت لامحصى هذه الملاحظات بمناقشة
من ذهبوا الى السودان ومن اقاموا فيه من المصريين ومن غير
المصريين . وكل غايتي من هذا التمحيص ان يكون القليل الذي
أعرضه في هذه الرسالة امام نظرات قراء اقرب مايكون للواقع
والحقيقة .

ويجب ان انبه القارئ الى اني توخيت غاية الصراحة فيما
سيقرا . لم ارفع ما قد يرعاه مشغل بالسياسة مثلى من
المجاملات ولم اسع لتخليق انسان او جماعة ولم اتقيد برأي سياسي
أو غير سياسي . لاعتقادي التام بان المواردية كثيرا ماينشأ عنها
الخطأ . واذا اخطأ الناس في تصور شيء لا وسيلة عندهم الى
تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيرا
بعد ذلك ان يتغير رأيهم ثم كانت الخطوة التي يسرون عليها مترتبة
على هذا الخطأ داعية التورط في ضلال لا ينشأ عنه الافساد في
السياسة واضطراب في النظام .

وكل ما ارجو التوفيق اليه ان اوقف القراء عامة وبنى وطني
المصريين خاصة على شيء من صورة هذا السودان الذي
يشاركنا في الامال والاماني لانه واينا يعيش على ضفاف النهر
العظيم المحسن ، وان اوضح امورا غشت عليها الاهواء ، وان
ادل قومي على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ،
وما يجب ان يكون بين المصريين والسودانيين من صلة وعلاقة .
فان وقتت الى ما اليه قصدت فذلك خير ما ابتغى . وان اخطاني
التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجبا على ان اقوم به .
وفي أداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة .

من مصر إلى الخرطوم

يعرف أكثر القراء الطريق من القاهرة إلى الأقصر ويقع الطريق بين الأقصر واسوان في مضيق بين سلسلتى تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل في سفح سلسلة تلال العرب وتفصله عن سلسلة ليبيا في بعض الأماكن مزارع ضئيلة تتسع أو تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها . ويبعد النيل عن القطار أحيانا فيجعل المزارع بينهما . وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب . ويصل الضيق بالمزارع في بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين في اقترابهما وليس بين أحدهما وبين النهر إلا دهليز ضيق مخضر بالغللات تارة ، أجرد لأزرع فيه أخرى ، فإذا كانت أسنا رأيت نشاطا غير الذى رأيت ، واحاط بالقطار من الأهالى باعة السلال المصنوعة من الخوص وأطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسفى أفندى .

فإذا بلغت كوم أمبو رأيت خصبا ونماء لم يكن لك منذ الأقصر بهما عهد . وقد يدهشك كبر الدهشة كيف ترك الأف الإفدنة مما يحيط بالنيل إلى الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء إذا أمكن أن تنتج هذه الأراضى مثل ما تنتج أراضى كوم أمبو . ولم لا تعنى الحكومة المصرية بتشجيع الأهالى على استغلال هذه الأراضى بدل تركها غامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد إليهم من ذويهم القائمين بالخدمة في المدن من أرزاق

تعود الأرض غامرة بعد كوم أمبو إلى اسوان . فإذا بلغها القطار

غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع،
وهم بين شيخ جاء يرجو في أشعة الشمس المحسنة بعض معاني
الصبا والشباب ، وعليل يمشي في مناكب الارض يتغنى الصحة ،
وحسناء تصحب هذا الشيخ أو ذلك العليل يعزيه حسناتها ورقتها
عن مشيبه أو علة ، وترى هي في اداء الواجب لهذا العزيز شفه
السقام شيئا من رضاء النفس يعوضها عن المدن وبهجتها ، وترى
في هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة التغير ما ينسيها تقلب
القلوب واكاذيب اللسن وظلمات النفوس التي طالما خدعتها باللفظ
المعسول . والى جانب هؤلاء الفارين من المدن وامراضها وآلامها
ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدي ركن ضيق من الارض
طلبات اهوائهم وشهواتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة
لترييض النفس وعزاء من هموم . قامة

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه في منتصف
الساعة الخامسة من المساء ، وهو في هذا السبيل يعود ادراجه زمنا
ثم ينطلق الى الشلال يقصد صخورا وصخورا من الحجر ومن الجرانيت
تحت منه مسلات الفراعنة الاقدمين وتماثيلهم واقامت منه
معابدهم واثارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تنحت منه التماثيل
وتتخذ منه القواعد لولا أن أصبح فن الفراعنة اثرا من آثارهم
على أن هذه الاحجار التي شهدت لمصر مجدا كما تشهد لها
اليوم هما ستبقى ليكون منها المجد المستقبل نصب وتماثيل
تخلد على الزمن ما خلدت نصب فراعنة وتماثيلهم
ويبدأ القطار يسير الهويئا يحيط به النيل وقد اتسع مداه
بعد ما حجز خزان اسوان مياهه ، ويظل كذلك بضع دقائق ينتهي
بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة وتقل المسافرين معنا الى
حلفا

وتنحدر جبال السلسلتين عند مركز الدر في النهر مباشرة .
ومن وراء الجبال صحارى غير ذات زرع . لكن مركز الدر هو

خزان اسوان . وهو فوق هذا حصن بديع يفصل بين ما يقع شماله وما يقع جنوبه . وهو لذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من أعزها عليها . ويخيل إلى أن من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيه أكثر رغدا ونعمة

وهو بعد مشى لا مثيل له . وانت كلما انحدرت إلى ناحية الجنوب منه وجدت جوا أصح من نواحي الشمال فيه . ووجدت سماء صفوا تلمع نجومها فتضى في الليالي التي لا قمر فيها حتى لتحسبها مصابيح الكهرباء شدت إلى السماء بخيوط من نور الأمل الساحر . وهي شديدة البريق تبعث إلى ظلمة الليل العبوس ما يزيل عبوسها ويجعل سكنتها تملأ أفئدة المحققين بالنجم اللامع بمعاني الطرب والجذل . أما الجبال المحيطة بالنهر فهي وإن كانت أغلب أمرها جرداء إلا إنها في تجردها باسمه أبدا ، وكأنها تنبه بما وراءها من مخلفات الماضي المجيد : بأثار الفراعنة زاد القدم والبلى صمتها معنى يحدثك أنت ابن اليوم بما كان لحضارة العصور القديمة من آثار في الفن تخرامامها آثار الحضارة الحاضرة ساجدة ، وبقايا من آثار الرومان الذين غزوا الوادي فلم يبق من آثارهم إلا بقايا لا تنطق بمعنى ولا تنم إلا عن غدر الغازي وعن سلطانه الأثيم

وقد يدهشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضي وراء جبال مركز الدر القفر القليل النبات . لكن دهشتك تزول إذا ذكرت أنه كان أكثر نباتا ونماء قبل أن تغمر مياه النيل أرضه بعد ما قام خزان اسوان فيه ، وإذا ذكرت إلى جانب هذا أنه كان ولن يزال حصنا قويا يدرع به الملوك ذوو الأيد إذا أغار عليهم مغير أو ثار بهم ثائر . فجبال مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم . تتحكم في النهر وفي السهل وفي الصحراء . ثم هي بعد جبال من صخر صلد لا يرتفع الماء إلى عليائه ولا سبيل إلى مسراه من خلاله فلا خوف من أن يغير النهر على آثار أعداء أهلها الحياة الخلد وبقاء

عرجت الباخرة عند غير واحد من هذه الآثار الخالدة . عرجت
هند وادى السبعوع وآماد وأبى سنبل وغيرها . وهى جميعا
مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت فى العظمة والقوة وفى
الدلالة على المجد والسطوة . وأبو سنبل هو بين آثار مركز الدر
أكثرها عظمة وقوة ومجدا وسطوة . وناهيك بمعبد أقامه رمسيس
ليكون واحدة من آيات خلده . وكان رسو السفينة عند أبى سنبل
فى منتصف الليل فمدت اليه أسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم
نقوش أجداد الانسانية الخالدين على ضيائها اللامع . فمعبد أبى
سنبل يخفى مكنون ستره عن العيون الا لحظة من تهارى فى بعض
أيام السنة . تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول .
فى هاته اللحظة تمتد أشعة الهطبة والمصريين فتحى ، لحظة
يزوغها منتصرة على جيوش الظلام تمثال رمسيس الخالد الجالس
على عرشه منتصرا على جيوش الخيانة والغدر . أما فيما سوى
هذه اللحظة فيختفى ما ينطوى عليه المعبد وجدزانه فى حجب
الغيب وجلاله . وناهيك بجلال الغيب من حجاب . وكذلك ظل
هذا الأثر حتى امتدت الايدى الأئمة باسم العلم تكشف النقاب عن هذا
الجلال بضياء المصباح والكهرباء على أنها حين كشفت عنه لم تكن
أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسطوته أقل سحرا وبهرا .

وبهذا الجلال المطوى فى حجب الغيب تحيط جدران معبد أبى
سنبل وقد وقفت أمامه تماثيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة
والجلال .



أما وادى السبعوع - وهو أقرب آثار مركز الدر الى أسوان -
فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر . يتخطى الداخل اليه دهليزا
يحيط به آباء هول هى السبعوع التى أطلق اسمها على الوادى عند
أهل هذه المنطقة من السذج القانعين بسعادة الطبيعة الساذجة . وقامت
داخل المعبد وفى ساحته تماثيل دكت من بعضهار ووس وتحطمت
من البعض سيقان . وقلت ذلك المحجر المحجوبة بطلاسمها المقدسة

وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك الزمن القارب والجعران
والثعبان وما إليها من آلهة ذلك العصر المجيدة

أما ماسوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة . على
أنها أبدا آثار العصور المجيدة . تحدث أحجارها ويحدث الرمل
المحيط بها بما كان لاهل هابك الازمان الثائية من حضارة ومجد ،
ويدعك وانت بين بك اللال الفانمة وسط الصحراء الغامرة
الجرداء عامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار
هذا الزمن الحاضر المتلى بحضارته ويعلمه وبفلسفته غرورا

لو أن السبل سرت للوسول اى هذا المسمى البديع . ثم اقم
فيه من وسائل الراحة وأعمه ما يجمع فيه من رعب الاستسقاء
ومن يفر من فرس قر السناء حسب السناء فاس فرس! فارت
مصر من مركز الدر كيرا ولا فاداهن هذا المركز من مصحهم
السوى البديع ما يغنيهم من فافه وما يجعلهم - وهم اهل أمنه
وساط - قوى منجبه ذات أثر فعال فى حياة مصر العامة

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محر كاتها فوق لجة النهر
الهادى الصافي وسارت تحيط بها شواطىء خضراء تارة مجدية
طورا ويشتملها هواء رقيق متع به المسافرون فوقها كما
متعوا بهذا الجو البديع الذى لانظير له فى مشتى من مشاتى
العالم ، وبهذه الجبال الصغيرة الجرداء تاره والخضراء اخرى
والمحاطة بالرمال الناصعة الاصفرار حينما اخر . وبالاثر
المظلة علينا من القمم الصغيرة ترمق أبناء اليوم ترى هل ترى
فى رءوسهم او قلوبهم او افئدتهم أثر من عبادة قدس الماضى المجيد
فترى فى نفس المصرى حينما يزاد او ينقص بمقدار عبادة
الشخص وطنه او مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

ها نحن اولاء الان تقترب ساء الباخرة من حلفاء ، فلم يبق بيننا
وبين رسو الباخرة عندها اذ دقائق : وهامى تحيط بنا رينة

الشاطئين من نخيل واعشاب وتلال ورمال . وها هو ذا الماء يتساب الى جانب القارب على هون وفي هدأة وسكون . والجو رقيق والسماء صفو والشمس ربيع زاه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة . ثم هذه حلقة عند مرمى النظر . وهانحن اولاء في سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا في سلطان حكومة مصر الى ساءتين مضى . فهل نحن ساجون في بلد اجنبي ، ام نحن ابناء النيل مانرا في وطننا نحكمنا وواسه كما حكمنا طبيعته الجميلة ابفانه ؟

لما عبرت الباخرة من حلقها عمل عنها رفاس فيه موظف اوراق الجوار الى السودان واسبب مهمته ان لا يدخل الى السودان اوسه من مصر . وهما الكبرياء . وكان بل ما شب بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان فيس اليوم ان هذا الرفاس كان يرفع في المامع العلمية المصري والانكليزي . اما في هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزي . وقد اجاب انكليزي كان معنا بان العلم المصري ما يراى يرفع في السودان قعدم رفع الرفاس للعلم المصري لابد ان يكون سببه ضيق المكان المعد لرفع العلمين عن ان يتسع الا لعلم واحد . قال رقيق : والعلم المقدم هو بالطبع عن صاحب النفوذ الفعلى .

ورست الباخرة عند حلقة ، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين في حكومة السودان بكثير من البسر والرحب ودهنا احدثهم فتناولنا القهوة في بيته وذهبنا الى الفطار الذي يعوم من حلقة في الساعة السابعة والنصف من بعد الظهر ليصل الى الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي فذا به قطار ايصر واذا حطه ضيق كسكه حديد الدلتا . لكنك ما تكاد تدخل الى عرباته وما تكاد تستقر في غرفة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى اخسر . معنى النظام والنظافة والطمانية والراحة . ويدهشك ان عربات النوم في هذا الخط الضيق اكثر راحة واستهواء من عربات النوم في مصر . فمعدات الراحة فيها اكثر منها في عربات مصر . مبررها اكثر سعة وغرفها ارحب وبها مقاعد يجلس عليها الانسان

حين لا حاجة به الى النوم . وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لاناء الماء وما قد تريده من لبن او فاكهة هذا غير وعاء الغسيل التنظيف اللطيف

تحرك القطار في الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا تناول غداءنا في غرفة الطعام . وهي على مثال غرف النوم في كفاية الراحة والطمأنينة . والطعام فيها مثله في البواخر النيلية اقرب للنظام الانكليزي في اصافه . والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة في البواخر النيلية ، هم جميعا من اهل البلاد . لا تقع عينك بينهم على اجنبى يقوم بالرياسة عليهم . وهم كزملائهم في مصر نظاما ونظافة وادبا .

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق ق (عطمور) ابو حمد . وهذا العطمور رمال تمتد امام النظر عن الجانبين حتى تلتقى بزرقة السماء الصافية عند الافق . ويتعد النيل عن سكة الحديد في استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد في خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر ، وفي هذا العطمور ينطلق القطار مارا بمحطات لا يحيط بها الا بناء المحطة وبيت الناظر ومساكن العمال . وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على ثلاثين كيلو مترا . وبيت الناظر ومساكن العمال - او تكلاتهم كما يسمونها في السودان - قد بنيت في شكل عجيب . فقاعدتها جدران مستديرة من الطوب الاحمر ترتفع عن الارض مترين او تزيد قليلا وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسبه صيوانا بالفعل لولا ما تبينه بعد اقترابك منه انه بناء غشى بالجير الابيض . وهو على هذه الصورة اكثر اتقاء لسوائف الرمال ولما قد يندر ان تقذف به الصدفة من الامطار . وحوز بيت الناظر ومساكن العمال ورمال العطور . فهم بذلك في وحده دونها وحدة الناسك في صومعته . ويمر بهم قطار حلفا والخرطوم اربع مرات في الاسبوع ذهابا وجيئة فيحمل اليهم ارزاقهم .

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يذو لهذه
الاماكن اسماء تذكر بحادث وقع فيها او يرجل اسس اول عائلة
عمرتها او بما سوى ذلك مما يبقى تاريخا لمظهر من مظاهر
الحياة الانسانية فليست لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا
التاريخ . ولذلك اعتبرت نمراتبا عند حلفا بنمرة واحد ،
وتنتهى قبل ابي حمد بنمرة عشرة . وعند نمرة ٦ تنف
القطار طويلا لتبديل القاطرة وللالاتصال بمناجم للذهب في ام
نباردى حيث تقوم شركة انكليزية باستغلالها

ولا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك الا ان تقرأ او
تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين
معنا من الانكليز . وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصلا فيما
بينهم منهم بغيرهم ، على انى قضيت ما بعد العشاء الى
منتصف الليل في حديث طويل مع المنيو السندرينى الذى قام
باكثر اعمال خزان مكوار كما قام من قبل بحظ كبير من اعمال
خزان اسوان

بقيت اتحدث والمسير السندرينى حتى قاربنا منتصف
الليل . وكان القطار ينساب في ظلمة الليل الداجى زاده ظلمة ما
يحيط بنا من انوار الكهرياء التى تحجب عنا ما قد يكون من التمااع
النحوم فى السماء . وسألنا الخادم عن الوقت الذى يصل
فيه القطار الى العطيرة فاذا هو يصلها فى الساعة السابعة
صباحا . حينذاك قمنا الى مخادعنا يهزنا القطار حينما
فيطير النوم من اعيننا ويغلب النوم علينا حينما فلا نحس
باهزار القطار . ثم انبعثت من خلال النوافذ تباشير الضياء
وجاء الخادم شامى الصباح . وما كدنا نفرغ من تناوله روى
ليس بابنا حتى كان العطار قد بلغ العطيرة ليصف فيها ساعه
كاملة .

عند العطيرة تلتقى سكة حديد (حلفا - الخرطوم) بسكة
حديد (بور سودان - كسلا) . وفيها حركة كبيرة لسكة
حديد حكومة السودان . بها ورشة للوابورات كاملة النظام

وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين . بل لعل اكبر عدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة . لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبكرة من الصباح فرأينا منهم هذا البسر الذي رناده في مصرى حفا . واكبر موظف مصرى في العطبرة يقضى مرتبا ستة ولايين جنها وهو وحده الذى يتقاضى هذا المرتب . اما من يليه في الدرجة فينقاضى سبعة وعشرين جنيها ويلي هؤلاء من دونهم في الدرجة من الموظفين .

وقام القطار من العطبرة الى الدامر فاجتاز نهر العطبرة على جسر (كبرى) متين حسن السكل . ونهر العطبرة صغير كان مأؤه حين دنا به غائضا . ومن بعده وقف بنا القطار في الدامر عاصمة بربر .

في هذه المنطقة وما بعدها تبدأ زراعة القطن على الطر . لكنها هنا ليست متسعة النطاق وان كانت تؤذن بازدياد مطرد . ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريبا من النهر تارة ، بعيدا عنه طورا ، مخترقا صحراء جافة حينها فهي اقرب الاشياء شيها بالعطموور ، مارا بين اشجار متكاثفة اخرى محاذيا بعض المزارع ثالثة . وفي هذه المزارع ترى القطن وغير القطن من انواع الزراعة وترى الدوم والنبق وغيرهما من الشجر .

لبثنا في القطار بين حلفا والدامر اكثر من ثمانى عشرة ساعة . وما تزال بيننا وبين الخرطوم ساعات ثمان . ومثل هذه السياحة الطويلة في سكة الحديد تعبد الى الذهن سياحات طويلة مثلها او اطول منها في أوروبا . لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوربية فرقا كبيرا . فاكثر السياحات في أوروبا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحول عبوس الجو دون ابتسامها ، واكثر السياحات في أوروبا تخترق سويسرا او غابة الدنيا السوداء فتريك سفوحا ناضرة يفوح منها شذا العطرو ويبدو للنظر اليها جمال الزهر

وهي بعد طبيعة لم تترك للطبيعة بل شارك الانسان الطبيعة في زينتها وفي جمالها فزادها زينة وجمالا . اما هذه السياحة الافريقية الطويلة فتخترق بك الصحارى التي لا حد لها ولا نهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لا تسمع فيه هسيسا ولا ترى فيه طيرا ولا حيوانا ولا ينبت في أكثره نبات ولا شجر . وما انبت للنباتات والشجر فينبتهما وفي كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يعلم من غربهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . افترانا وقد تخطينا العظيرة والدامر وأصبحنا يف بنا الفطار او يمر على محطات داب أسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شيء من الشجر قد صرنا الى منظر ذي بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب لا

كان لنا في ذلك أمل . لكنه سرعان ما تبدد وبقي لنا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه الغابات ترعى فيها الابل ويجد فيها البدو لاغصانهم وماعزهم وأبقارهم مربعا . على أن لهذا السراب بهجته . ومن تلك البيجة أهل هذه المدن المستوحشة . فهؤلاء هم يقتربون من القطار كلما آوى الى إحدى لمحطات ويبدأ امرأة ابن رائب تبيعه ويبدأ غلام عيس يعرضه لرب به جوح . ولعلك غير مستطع وان وصفت لك هذا العيش أن تتصور ما هو . فرغيفه صغير الحجم منمنفخ لا تدرى أهو من ذرة أم من شعير وغير اللبن الرائب وغير العيش ينجر بعض السودانيين اخوانا في سلال واسبات صنع صنعا ظريفا من قش ملور . وهذه هي البضاعة التي يقبل عليها بعض السائحين وعند لديهم سوما رائجة . اما اللن واما العيس فلا عيش لهما الا بين المسافرين من أهل البلاد

وهؤلاء السكان من طبقة العمال في السودان ليسوا جميعا أصليين فيه . بل بعضهم سكاناوية اتوا من سنكو واخرون فلانجاءوا من النجدي في طريقهم الى الحج فوقفوا في السودان ينعون ما في قلوبهم في هذه الرحلة الطويلة التي تكلفهم أحيانا سنين

تباعا يقومون بها من قلب وفسر راضية راجين ان بفقر الله
لهم بعد اداء فريضتهم المقدسة ما يقدم من ذنبهم وما باخر
ومن هؤلاء الثلاثة عدد عظيم يقوم بزراعة القطن وجنبه في
أراضي الجزيرة . وعلى عمالهم يعتمد حكومة السودان الى
حد عظيم

الدامر عاصمة مديرية بربر . واعطن الذي يزرع في مديرية
بربر وفي غيرها من مديريات شمال السودان يروى من مياه النيل
الرئيسي . وطرائق ريه تختلف فما كان من زراعة الاهالي فنرويه
السواقي . وما كان من زراعات الشركات فنرويه الآلات . وقد
ذكر لي بعضهم ان المساحات التي تزرع قطناً في شمال السودان
اي فيما قبل الخرطوم ليست كثيرة وليست بذات خطر
والقطن الذي يزرع في هذه المناطق كالقطن الذي يزرع في
الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التي تراها . وقد
رأت بيعه بالمزاد في هذا العام وبعد البيع تحاسب الاهالي
على انها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوي النفوذ
بان يتولوا هم بيع افطانتهم بانفسهم . وقد ذكر لي مصري
من اليهود له متجر واسع للاقطن في ليفربول انه هو الذي يشتري
اقطن هؤلاء المشايخ في كل عام كما يشتري قطن الحكومة . وان
المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا يبلغون
العشرة عدا

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا
شان عظيم .

وليست تقف زراعة القطن عند مديرية بربر بل تتعداها
الى المديريات التي بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الاراضي
التي تزرع قطناً ما تزال قليلة . وهذه القلة هي التي تجعل اهالي
تلك المناطق ما يرالون بعيدين عن معاني الحضارة مستمسكين
بفقالد البدر اصححه ، على ان ما يجده بعضهم من الربح في
زراعة الارس يجذب هذا البعض للاستمرار واستغلال الاراضي

انطلق القطار بنا الى شندى ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقرب رويدا رويدا من الخرطوم بحرى . فلما بلغناها قابلتنا معسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل .

عن يمين الداخل الى محطة الخرطوم بحرى متسع كبيراعد كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافى لليقين بان ليس فيها ما يحمل الى مصر وباء او ضرا . وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذى يقلها الى حلفا فالسفين الذى يقلها الى الشلال

والى جانب هذه الكورنتينة مكان أعدنه حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لى عناية كبيرة بهذه التربية حتى لا تحتاج الى شراء خيل للجيش ولا تستعين من حيوانات الخارج الا بامزور القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النجا .

ينساب النيل الازرق بين الخرطوم بحرى والخرطوم . ويجذره القطار فوق جسر (كوبرى) عريض يتسع للقطار وللنرام وللراكبين والراجلين . ثم يلتوى القطار بعد ذلك مارا بين كلية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطانى عن الشمال ويتابع النواء حتى يصير الى محطة الخرطوم الرئيسية .

وتقع محطة الخرطوم فى فضاء من الارض لا يحيط به ما يشعر القادم معه بشىء من مهاجمة محطات العواصم . فالمباني الخاصة باعمال المحطة منعزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمباني محطات الارياف العادية فى مصر . وليس لها من وجهة مباني محطات حلفا او محطة العظيرة كثير ولا قليل . وخط الحديد لا يظله سقف ولا يحيط به من الافاير ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة ما يرى عادة فى المحطات الرئيسة . بهدلك دهش من لم يعرف الخرطوم من

قبل أن تكون هذه محطة سكة الحديد لعاصمة السودان . على أن هذه الدهشة لم ندم إلا ريثما حدث بالبصر زينات كنت تمتد الى مرمى النظر في طريق مسعبيدا امام المحطة . هذه زينات يوم الملك أعدت للاحتفال بعدد دكر مقدم جلاله الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند في سنة ١٩١٢ . وهذا الطريق الذي تمتد فيه الزينات هو شارع فكتوريا . وهو يفصل مابين المحطة وسراى الحاكم العام كانت الساعة الرابعة حين وقف القطار في المحطة . وكنا قد امضينا ستا وعشرين ساعة من وقت أن غادرا حيفا . ومهما تكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قسوة من العذاب . لذلك فرح المسافرون جميعا ببلوغهم الخرطوم . ونزل كل يبحث عن البيت او الفندق الذى يأوى اليه ونزلت مع من نزل فالفيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون . فلما راوئى قابلوئى بالترحاب والبشر بما ادخل الى نفسى القبضة والطمانينة ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراند حيث قضيت ايام مقامى بعاصمة السودان .

الخرطوم بالنظرة الأولى

قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصرى وبعض الفرق الانكليزية في العقد الاخير من القرن الماضى كانت أم درمان هي العاصمة الكبرى لهذه الاصقاع المترامية من اراضى القارة الافريقية ، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش وكانت ذات أهمية تجارية خاصة اذ كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغسر الأبيض من بلاد الداخل . فلما فتح السودان وجد لورد كتشنر الخرطوم وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية ما يجعل حقا لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان . وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها الا آثار وأطلال . فجددها بهمة الجيش المصرى وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير . وسعى سعيه ليجعل أم درمان اثرا بعد عين . لكن أم درمان بقيت الى يومنا مستقر تجار الواردات الى السودان كما ان الخرطوم أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان .

ولقد روى المحدثون كثيرا من الروايات عن الخرطوم وجعلوا منها مدينة غريبة بحتة . فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين مترا ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين مترا . ومبانيها منتظمة تمام الانتظام ، وفيها نور الكهراء يضىء شوارعها ومنازلها ، وفيها المياه جارية في كل المنازل . وهذه التفاصيل عن صورة هذه المدينة التى اشتق اسمها من صورة النيل الاررق المسوى السواء خرطوم القيل سرك في ذهن اعمارى محلا لمعارفات

كبيرة . فهذه الشوارع الواسعة وهذه الانوار الكهربائية وهذا الماء الجارى أقرب ما يكون الى سور مدن المياد في أوروبا . ومدى المياه في أوروبا يجمع من معانى النعمة مالا يجمع في غيرها من المدن . فيها الحدائق اعماء وفيها اماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة ، وفيها كل ما يجلو صدأ النفس ويطردهموم القلب . اذن لا بد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة . فطوبى لقوم جعلوا في اقرب المناطق لخط الاستواء ما قصر عنه كثير من أهل مدائن المناطق المعدلة .

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك . فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى - كما يسمونها - حتى اذا بك قد مررت - بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحرى - ببعض مبان للحكومة لا تحقق الصورة التى في نفسك ولكنها مع ذلك لا تقضى عليها . فحول كلية غردون والمدارس المحيطة بها حدائق طريقة تأخذ بالنظر . لكن بعدها فضاء صحراوي لا بناء فيه ولا ماء . وتتلقت وانت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ما حولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد . فاذا وقفت القطار رأيت ميدانا واسعا ليس فيه شئ يزينه ورأيت امامه مثل تلك المباني القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذابة المملئة بهانفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ما تشغل عن هذه الصورة وذبولها بمن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ربح مصر ما يسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الراكبين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد أن كانوا في حياتهم جزءا غير قليل من هذه الحياة ، والذين أصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة وملها من الاماكن الى عرفوهم من قبل فيها أقرب الى قلوبهم وأفئدتهم ترى هؤلاء المعارف فنهز ايديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ما حالها وعمن خلفت وما صار اليه أمرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت في اخنيار

فندق تاوى اليه عاونوك برايهم وبمساعدتهم وبكل مايملكون من وسائل المعاونة ، وأشهد لقد لقيت من رقتهم ما أنساني مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها ما فيها من مشقة برغم ما فى القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولي المحطة أحد كبار موظفى حكومة السودان من السوريين فلفسى بترحاب اى برحاب وسحبني فى سيارته الى جراند اوتيل حيب رلت . وماكاد يسفر بى المقام حتى جاء لزيارتي بعض اخواننا المصريين . وفيما كنت بالسيارة فى طريقى الى الفندق اظهرت دهسى مر هذه الصورة التى تبثت لى من الخرطوم وانتهى لا نفق فى شىء مع ما كان مرسما لها فى خيالى السوارع واسعة حقا وعرضها يزيد على بلاين مراً . وفيها الكهرياء حقا تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنها شوارع غير مرصوفة والراب عن جانبيها كبير حتى ليفوس فيه عجل السيارة . ونحن على ما يظهر فى خير احياء المدينة الآهلة بأعظم سكان الخرطوم من الموظفين . ثم ما هذه المباني المحيطة بنا والتى لا ترتفع أكثر من طابق واحد أو ما لها لا يحيط بها نضرة الزرع وخضره الا قليل ؟ ولم استطع اخفاء ما يجول بخاطري فسألت صاحبى ما بالهم لا يرصفون الشوارع . فكان جوابه ان قال : ان ذلك يكلف مليوناً من الجنيهات ولذلك بكفى الحكومة بتسيير الواهورات الفسلة فى القسم الاوسط من الشوارع الكبرى حتى يمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التى كانت مرسمة فى خيالى من الخرطوم ذبولاً حتى كادت تصل الى حد القبح حين ذهبت فى صبيحة اليوم التالى أروود أنحاء المدينة فقد انحدرت الى احياء أعدت لموظفين أقل من الاولين درجه ولبعض اعيان المدينة ، كما انحدرت بعد ذلك الى الاحياء الآهلة بالسودانيين وتجارتهم والى تقع بعد ميدان الجامع . وهذا الميدان فسيح متسع اعد لتعام فيه الحفلات ذات الصيغة الدينيه واخصها حفلة مولد النبى

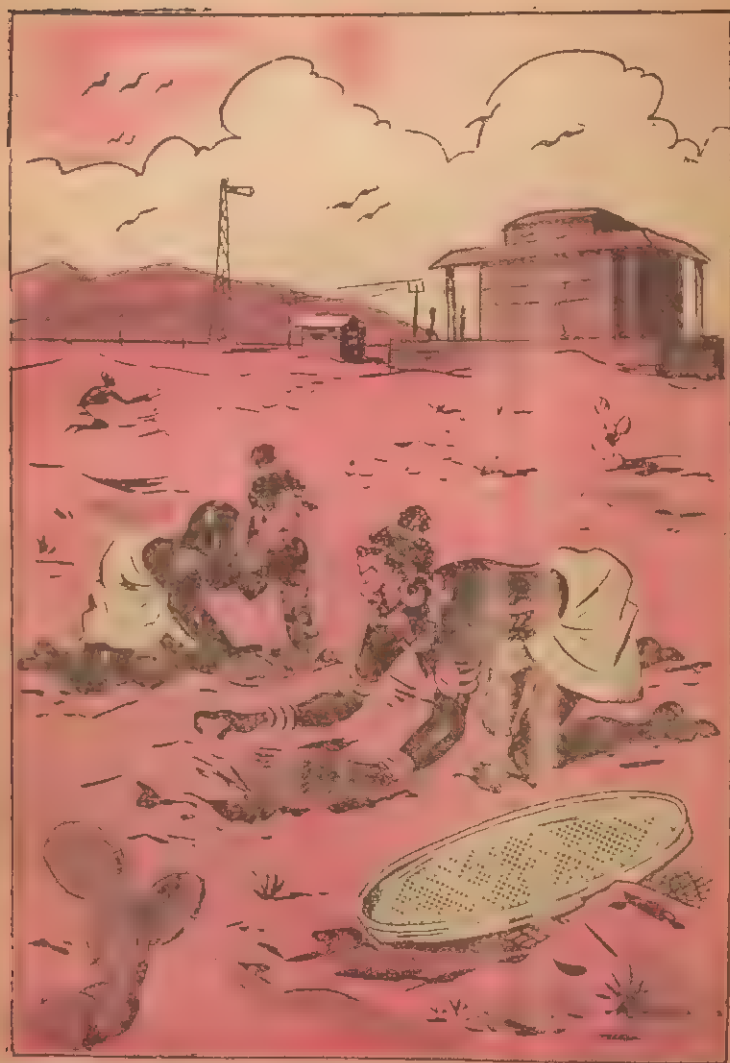
ومع ذلك فهو ميدان ترب نفوس القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر العقب بعد قليل . فاما ما بعده من الاحياء السودانية البحيه فسجل فيهما مظاهر العافه الغالبة . برى فجوات مفسوحة في بناء منخفض هي حوائط الصناعات والباعة . وبرى في هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوسا وعليهم ملابسهم البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والسراب . وبرى امامهم من صناعاتهم العنجريات والاحذية وغيرها من صناعات وطبقة ضئيلة فاذا ازددت تغلغلا الى ما بعد ذلك رايت حوائط من القش يعمرها رجال لا يكاد يستريحون من الملابس لا قليل . ورايت بعدها « سوف النساء » عملت الشمس في وجوههن واسار برهن فرسمت عليها من علائم اليؤس واثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما في الحياة من سحر خداع يغري اشد الناس يؤسا وشقاء بأمل في يوم نعمة ورخاء . وتبيع هاتيك النسوة (الكسرة) . وهي نوع قبيح من الطعوم ، كما يبيع الفلفل وبعض الوان الشقاء مما يطعم الفقراء ولا تطاوعك نفسك لتشهد من يؤس هاتيك وأولئك اكثر مما شهدت فتعود ادراجك طالبا بعض ما يروح عن نفسك وكان معي صاحب مصري ظريف سار واياى الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن) . والمقرن هو المكان الذي يقترن فيه ماء النيل الابيض بالنيل الازرق ويجرى عنده السفن التي تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان . فقصصنا الى حيث محطة الترام وانتظرنا حتى اذا اقبل الفيتة تراما بخاريا تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثمانى او العشر واكثرها قدر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الاولى مفروشة مقاعها بجلد أو مشمع تود لو ان مكانه خشبا نظيفا .

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الاخر . واجتاز بنا في احياء بخلف نعمة ويؤسا . لكنه كان يسير في شبه صحراء

قل ان تقع العين فيها على سائر فلما بلغنا مخازن الجبوب عند
سكة الحديد وقعت العين على منظر ما احسبني ريت في الحياة
شيئا اشد منه ايلاما ولا اكثر منه دفعا للاشعاع الى النفس. منظر
لن يستطيع الخيال وان غسلاوان بالغ في الغلو ان يصل الى
تجسيد الالم الانساني كما جسده هذه الحقيقة الناطقة
بكل معنى القسوة الانسانية

الى جانب مخازن الجبوب ميدان فسيح من تراب ضارب
لونه الى لون الرمل . وفي هذا الميدان تمر الغلال من ذرة او
شعير الى المخازن. وقد يقع بها أثناء مرورها ما يختلط
بهذا التراب

لم ار الجبوب تمر ولم ارماسقط منها الى الارض واختلط
بترابها . لكني رايت امرأتين كل واحدة منهما عارية او تكاد فلا
يسترها الا خلق قدر يغطي عض اسفلها وينرك الظهر كله والاذرع
والراس مكشوفه للشمس وللواء . وكانت كل واحدة
مفعبة كما يقعى الكعب وتنش الارض باظافرها وقد احدثت
فيها فجوه كبرى وهى ما نزال دائبة على التمش وتلقى ما بين
حين وحين شيئا من التراب الذى يعلق باظافرها ويديها في غربال
او منخل الى جانبها . سألت صاحبي : ما بال هؤلاء النسوة
الكبين على الثرى يحتفرون باظافرن كما يحتفر الحيوان
وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبي وفي نبرات صوته رنة هم وشجن
هن فقيرات لا يجدن قوتا ، وقد نعول واحدتهن طفلا او اكثر ،
وقد اقبلن يحتفرن التراب آملا ان يجدن فيه من ذرة او شعير
مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن . فادا ظفرت احداهن
بها حسبتها حبة ألقت به في غربالها . وتظل كذلك يومها
تحتفر القوت من تراب الارض احتفارا . فاذا حيل اليها ان
قد اجتمع في غربالها بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه ما يقيمها
ويقيم من تعول من طفل او ييمة ، وما لبعض يوم . وهن كذلك بلقطن
ما اعابهن القدر فادا امطرت الدنيا وانفضى موسم الغلال فلهن
ولن يعلن البؤس والويل



وكانت كل واحدة مقيمة كما يقضى الكاب ونبش التراب
ناظرها آهة أن تجد فيه حبة من ذرة

أى سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟ ! هو أسود من تلك
الوجوه الشقية والظهور العارية والسعر الفاحم في تجعده والتفافه
ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه
هاسك المتسولات يرتجفن عظم كسريم . او ياملن ان تمس
توجعتهن قلبا مكلوما يفض حزنه سخاء . هو يؤس النفس
الى تعف عن السؤال وترى في غابات السقاء مع العمل بعة
الرفعة عن مسئلة اللئام بل عن مسئلة الكرام .

حدثت بعض المغم - بالخرطوم يسدا وبمليه مما
شهدت فيها فاذيل ما كان لها من صورته في نفسي . وجاهدت
لاجد لذلك كله عذرا . فالخرطوم بلد جديد . دخله الجيش
المصرى ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ ، فالبنا
خرابا بيا . ومن ذلك التاريخ اصبحت المدينة كلها بما فيها من
معسكرات ومنازل وشوارع وطرق . رسمت يوم رسمت
على صورة الراسه الريه بة لتكون سلا للنظام الانكليزي
الهاديء المظمن . وغرست الاشجار فيها فنتت ما نبت منها
واعيد غرس ما مات . والمنازل كاشجار لها حياة غير الصورة
الظاهرة وغير حياة الجسم الذي ينسبه مع اجسام الغير في اشتر
مفهره . لها حياة الريه المنمده من تاريخها ومما من
بها من محن وآلام ، ومن مسرات واعباد . وهذه الستون ليست
كافية لبعث الى مدنه من المدر حياة الروح ولتجعل منها ما
يحدث النازل اليها بمعان تحدث بها المدن القديمة التي شهدت من
قبر التاريخ وعمره ما ترك على كل جدار من جدرانها وحجر من
حجارتها صحفا ناطقة بمختلف الصور والمعاني . فللخرطوم
العذراء ، وهي بعد بلد حديث ، اذا هي لم تحدثك بمكون حياتها
وبدت لك كما تبدو للعين الدمة صنعها الصانع على مثال غيرها
من الدمى ونم نكلهما الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقبحة ،
والتي من جانب ذلك من العذراء ما فيها من بعض الجمال انما
اندر ما يحاكمي ودمي الامم فيها مما لا يراى مفهره مدات
قنبره عسى يحى لدى نفسه يعمور .

فكان جواب بعض من تحدث اليهم بما احسست به وبما
المسبب للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما اقصى عليهم سنا
من الحق كبيرا وفيه من العار كذلك سوء كسر . فالخرطوم
بلد حذب حقا . وليس من سكانه من الخائن ما يحفل
فيه وحدة الروح التي نفس الحياة . ففيه الانكسر
والسوريين والمصريين والارام والسودانيين . وليس من هؤلاء
جمعا من الاحباط ما خفي روح جماعية يرفرف على
اليدين كله ، بل انكر جماعه وامهسا الغومي واجسي
والدينى واعوى وسوارع ساعلى سمعها لم يسمع بعينه
النظام الذي يجعل سائن ورونا وسكن مصر راها بالعين
اسى كن يطن ان سمرعها . واحياء البلد بلاده . اوها
الواقع على السل الاررق ماسرة وهو اجملها واكرها نظام . لا
يفطه من غير الانكليز الا السير السد على المرضى اساء . فله فيها
قصره وله امام قصره سافيه بمانها الجارى . وبانها مقام
غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الاصاغر وبه تجارة
الاروام والسوريين وما فى البلد من دواعى المسرة ، وثالثها مقام
اهالى البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبى . وبه ما
سبق ان اشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة . لكن للخرطوم
على الرغم من ذلك كله جمالا وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى
الحياة وروعتها

ولعل الانكليز اول من عرف كيف يجعل للحياة فى الخرطوم
معنى وروعة منسدة زولوها . فقد اقاموا لكل منهم منزلا بما
تحتمله كلمة منزل الانجليز

من المعنى . جعلوا فيه حديقة وملعبا للتنس ومقاما للطيور .
وجاء كل واحد فى بيته من الحيوانات والطيور الليفة او
التي يسهل تألفها كالغزال والبيغاء بكل ما تحتاج اليه للمراء اوقات
فراغه من غير ملال بل بغبطة ولذة . وقد وجد كل انكليزى
من « منزله » الكامل الاداة ما يعوض عليه مشقات العمل فى
هذا الجو الشديد الحرارة فى فصل الربيع وما يتسلى به عن

وحدثه وبعده عن بلاده . ثم لم يكتفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرد القدم كما افاموا حرج المدينة ميدانا لسباق الخيل . ومضى مصاب للابحزى معدات الرياضة كمل له نصف نعيم الحياة . وهو واجد في بسه غير ما فيه من معدات الرياضة سكينة وطمأنينة . فاما ما بقى بعد ذلك من لذة الجماعة والحدث الى الآخرين فمسر للاكلزى في ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضى فيه شطرا غير قليل من وقته .

وقد اخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونهجوا نهجهم . فلكنير من الموظفين السوريين والمصريين في منازلهم ملاعب للتنس وانواع شتى من التسلية .

قالت سيدة سورية لها في الخرطوم ثلاث سنوات : لقد شعرت شعورك لاول ما نزلت الخرطوم . فلم يعجبني قفراها وصمتها الموحش . لكنى لم البث على ذلك الا قليلا . وما لثت ان وجدت في منزلى وما حوله من حديقة وملعب وطير او حيوان سلوى حببت الى الخرطوم وجعلتنى ارى فيها متاعا وروعة

ولا ريب في احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فاليست يشغل من حياة الانسان رجلا او امرأة حظا عظيما . فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة . وليس البيت هذا الطابق الضيق في احدى العمارات المشيدة يحيط بساكنه عن اليمين وعن الشمال واعلاه واسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كي يحافظوا على سكينته ، ثم هو لا يجد بعد في هذا الطابق ما يعينه على مرحة ورياضته . انما البيت الذى فيه النعمة والسعادة هو ما اتسع لحديقة وللملعب وكفل لصاحبه سداد ما يحتاج اليه وما يشتهي . وما اكثر ما تكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب المقيمون بالخرطوم في تحببهم الى اكثر من هذا ، فهم يسألونك : الا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطئ النيل الازرق ما بين سراى الحاكم العام وحديقة الحيوانات

والواصل الى القرن ؟ الا ترى المباني على جانبه يحيط بها
خضرة الزرع الناضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاسماء
اكثر المنازل حتى لتكاد تحجب القصر المنيف كوسجا في طلال
حديقته ؟ وفي هذا الشارع يقوم فندق (الجراندي) وهو يضارع
ابهى فنادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحدفنه الفاء
الواسعة المحيطة به . وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح
للعين ونزهة لل خاطر بما تحتوى من ضوار وكواسر ومن طير
ووحش وغزال . ثم ان بالخرطوم من اماكن التجارة مالا تطمع فيه
مدينة في حجمها وعدد سكانها : فيها مساجر واسعة يرد اليها بل
مستجبة العالم الممدن من انواع الصناعات ومواد الترف ، وبعض
هذه المساجر كبر الى حد يكاد يتنافس معه اماكن التجارة الكبيرة
بالعاهرة . وما عليك الا ان تزور السوق لترى فيها محلا لدافيس
بران ينافس محلا لقانس الارمنى ، ولترى كذلك محلا
لكبابو الرومى ولمرهيج السورى ولترى غير هذه من الاماكن مالا
تأتى مصر القاهرة ان تنافس به مدائن العالم .

وليس للغيريب النازل بالخرطوم ان يتنعى عليها عدم
توفر المجتمعات العامة بها . ففيها قهوات وبارات ومطاعم .
ولئن كان هذا كله قليلا وكان غير ماهول فلان سكان المدينة
قليلون لا يزيدون عن ثلاثين الفا ولان اهلها اعتادوا عيش النوادي
يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنسا ولفه ودينا ، فليس بهم
الى هذه المجتمعات من حاجه .

وفي هذا الذى يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير
قليل . وفيه ما يدل على ان النظرة الاولى لهذه المدينة
الجديدة المختلطة تسرف في الانقاص منها والجنابة عليها .
لكن هذه النظرة الاولى تحتوى من الحق هي الاخرى جانباً غير
قليل . وهذا النوع الذى يصفه لك من الطمانينة والسكينة غير
على جماعة الموظفين والقائمين بامر الحكم . ولئن كان اكثر
المقيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمى كل منهم
الى طائفة يجد في الانتماء لها متاعه فانت لاتكاد تشمر في

الخرطوم بحياة المدنية على ما ألفها في العواصم التي تجمع الموظفين والتجار وأرباب الصناعة والفن والعلم ومانشئها هذه الحياة من جو فكرى تنعكس فيه الآراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة أخرى عاملة دائماً للسير بالانسانية المحيطة بها في سبيل الرقى والتقدم

وهذا طبيعي ان كان السودانيون قليلين في الخرطوم جد القلة ، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالاً له من الصبغة السياسية اكثر مما له من اية صبغة أخرى . ذلك بان ام درمان ما تزال للسودانيين هي المأوى وهي الملجأ . اليها تحس ملو بهم لانها عاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لنكون عاصمهم الجميع وملجأهم ومأواهم .

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى انها مدينة جديدة لما تمض خمسون سنة على عمارتها للمرة الأخيرة ، والى انها بنيت هذه المرة الأخيرة لتسد حاجات المستعمرين ولتقدم اليهم ما يستطاع من مواد النعمة والترف ومن اجل ذلك لا يستطيع النازل بالخرطوم ان يرى بها ما يكتسب له عن معنى الحياة الوطنية في هذه الربوع المترامية الاطراف . وانت اذا اردت ان تعرف شيئاً من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك الا ان تقصد الى الدير حيث تقوم « تكلات » السودانيين المبنية من الطين والقائمة في « ديم » الوطنيين ترى شبهة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم .

و « الدير » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل . وهو بعيد الى ذاكرتك حين تراه صور « العزب » القديمة التي يقطنها « التملية » والمستأجرون في ارباب مصر . والدير كالعزب القديمة لا منافذ لمنازله المكونة من غرف ارضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب .

ولما كانت الخرطوم مقام المستعمرين ومن احاط بهم من التجار الاروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها اقرب للحياة الغربية في كثير من مظاهرها . وانك لترى



وعلق على صدور أعيان السودان الصالحين أوسمة صمغ أكثرها
صلباناً ماكانوا ليرضوا ان تمسها أيديهم لولا أنها تحمل معنى
الشرف والتقدير

متاجرها متسعة على طراز المتاجر الأوروبية كما ترى أكثر التجار فيها أشد بالأوربيين اتصالا . وفي سبل هذه الحياة الغربية يرضى المقيمون بالخرطوم أن يجعلوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظة في علب الصفيح أو الزنك حظا كبيرا في قوام حياتهم ، ورغم ما يمكن أن يعترض به أولو العلم في شؤون الصحة على هذه الاطعمة المحفوظة ، وبرغم ارتفاع اثمان هذه المسواد التي ترد الى الخرطوم من بلاد بعيدة . لكن لاهل الخرطوم في انخفاض اثمان الحاجيات الأخرى التي تنمو وترى في البلاد نفسها ما يعوضهم بعض الشيء عن غلاء اثمان الواردات وما يخفف بعض الشيء كذلك من الاعتراضات الصحية التي يطعن بها على الاطعمة المحفوظة . فالغنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهى رخيصة غاية الرخص . فريال يكفي ثمنا « لاوزى » لذيد أو لديك رومى أكثر منه لذة ، ويرى بعض اخوانا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفنين في الطعام أن الديكة الرومية تحتاج بعد أن تسترى بهذا السم البخس الى لمس قيمه تسرل لسمن ويد . لكن الاكسريرونها لذده من غير حاجه الى هذه العناية .

أما الحضر والفواكه فنادر جدا الندرة في الخرطوم وفي السودان جميعا حتى لتتقطع في بعض الفصول انقطاعا تاما وحتى لرى الوارد منها من الخارج تتخاطفه الايدي قبل أن يصل الى الاسواق . ولذلك كانت اللحوم الغذاء الاساسي للمقيمين هناك ، وكان لها عليهم من الأثر ما لها على أكلة اللحوم لولا حضارة أشربتها دمؤهم أجيالا طويلة فلا تستطيع شهور أو سنوات أن تغفلها من طبائعهم اقتلاعا .

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بأنها مقر حكومة ذات نشاط عظيم . فإذا كانت مدينة تنقصها حياة المدنية وينقصها تاريخ المدن فهي مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة . وهى لذلك أكثر شبها بالمعمل *Laboratoire* وهذه الصورة منها تستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة .

عبد الملك (أويوم الملك)

اثر تويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكا على انكلترا في اواخر سنة ١٩١١ سافر على عادة اسلافه ليتوج امبراطورا للهند . وفيما هو في طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ . وقد اعبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تويج لجلالته امبراطورا للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عبد رسمي كونه عبد جلوس جلالته على عرش السودان . ففي هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالتيانة عن اهالي السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكرا اهالي السودان مظهرا حرصه وحرص جلاله الملكة على رغد السودان وتقديمه . وفي هذا التاريخ من كل عام يعفل دور الحكومة ونزول الخرطوم بزينة العيد ويقام الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الاوسمة التي تمنعها حكومة ملك انكلترا على رعاياها من اهل السودان اعترافا بولائهم وتقديرا لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللامبراطورية

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد ، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامي لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العبد الى مقام في سراي الحاكم العام بحب اشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ما تمنع به الحكومة البريطانية من الاوسمة ويقوم من المراسم بما تقتضي به هذه الرعاية . وسراي الحاكم العام جدرة بأن تقام فيها مثل هذه الحفلة

وما هو أفخم منها . فقد أقيم على اثر فتح السودان في أواخر عام ١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراى التى قتل دراويش المهدى فيها غردون باشا والتى كانت مقر حاكم السودان من قس مصر . وقد روى فى أقامتها ما يجب لها من العظمة والفخامة . وهى بطل بمبانيها على النيل الأزرق ، ولها عند بابها البحرى . ونفس من الجبه الفيلس على سسره واسع الأرجاء مبرامى الانحاء بدع انطام قوم في آخره . سب النمل المؤدى الى سابع فكور . فاني محطة الخرطوم .

وابت ارا دخلت الى السراى من جانب السيل الاروى فابلك لول بحتيك انباب دهلر سسل به غرفه اسطار من احبه ووصل به من الاخرى غرف عديدة من داخله أعدت لموظفى الحكومة المصلين بالسراى . وجدرا ن هذا الدهليز مريه كلها بعدة الحرب وآله . فمنها قيعات وحراب مختلفة اللون والشكل ، لكنها جميعا قيعات الفرق الانكليزية وحرابها . وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزيه . فادا اب تخطت الدهليز وجدت افقيا عليه دهليزا اخر طويلا يمد من الجانبين الى ناحيتى السراى السرفه والغرفة . وظل هذا الدهليز الافقى على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام واهله وجعل الاخر لضيوفه . والدهالز والغرف والاجنحة كلها بادية للفخامة والمهابة . ومن فوق السراى يرفرف العلمان المصرى والانكليزى

اما حديقة السراى او بالاحرى متنزهها فقد فرشت ارضه بسندس الجازون والحشائش الصغيرة وقامت في جوانبه وفي اواسطه اشجار باسقة . كان ورقها في هذا الفصل الذى يذبل فيه ورق الشجر في مصر ويتحرى من كل ورق في اوربا اخضر ذا رواء وبهجة . ولا عجب ، فاجمل ايام السنة في الخرطوم هى ما يقابل ايام الشتاء . وما بالك بطقس نهاره نهار الربيع وليله اخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بدع الابتسام .

اصبحت الخرطوم يوم الاثنين اذن في لباس العيد . كانت
الرايات والاعلام ترفرف في شارع فكسوريا وفي مقدمة بعض
الحيوانات والتاجر . وكان الحاكم العام قد دعا الى
حفلة تشييع في مساء في سراحه بعد ظهر ذلك اليوم عددا
يريد على الصناعات من بينهم ستة وعشرة من اعدن السودانيين
ورؤساء القبائل والعشائر فيها من لا يسمون بالخرطوم كما دعا
اعدن السودانيين بالخرطوم ودع كيار المونفون وكن ذى مكبه من
غير السودانيين . وبهؤلاء وبرتة العيد خرجت المدينة من صمها
الموحش بعض الشيء . وكان اعيان السودانيين في جسيه الحمراء
والزرقاء المطرزة بالذهب ويسسوفهم الموهبة غمدها
بالذهب كذلك اكسر ما خلع على منظر العيد بهجة وزينة .

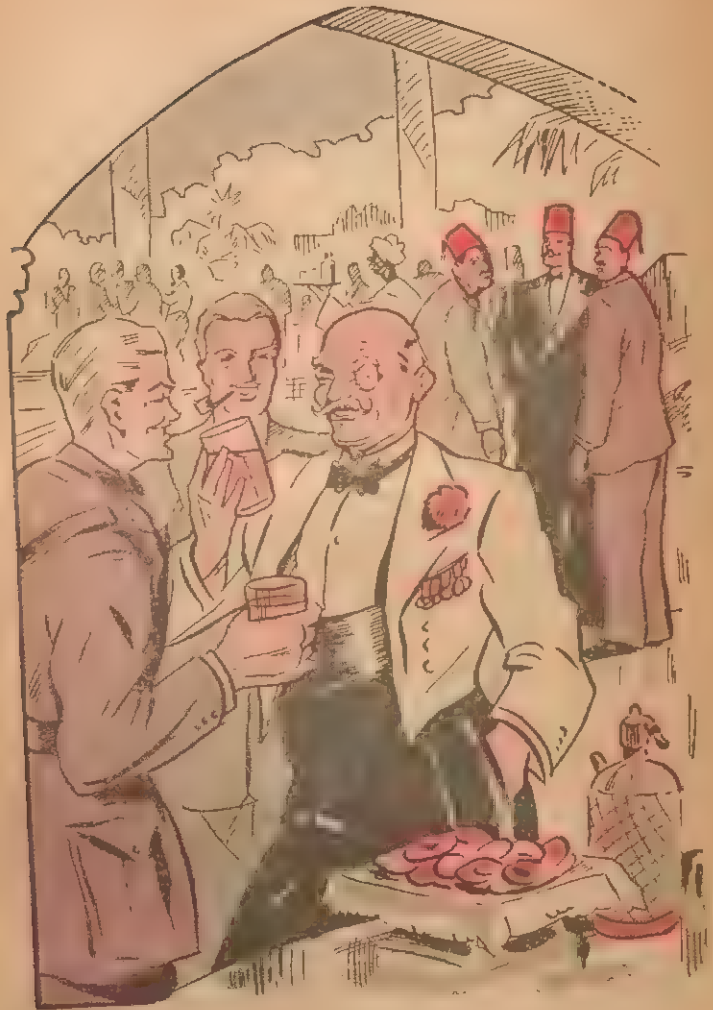
في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم اسفل الحاكم العام
وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامي الذي
وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادما من مصر ثم قصد وابه
سراحه . ولم يكن في استقباله سراى غير عشرة من اكار
اعيان السودان صافحهم المندوب السامي وعزيبه سم صعدا الى
غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعد الحفلة تشييع حيث
يقدم المندوب السامي اوسمة اسرف لاربابها هرع المدعوون
الى سراى الحاكم العام ، حوالى هذه الساعة ، ومنهم جماعة
« الرسميين » اريدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا بفساتينهم
واوسمتهم ، ومنهم اعيان السودان تقلدوا فوق عيهم بهم
الحمراء او الكحلة المطرزة بالغصب المذهب ويسوفهم المرساة الاعوان
بوشى الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير اعيان
السودان من ذهبوا في ملابس كل يوم . وبذلك كانت حديقة
السراى معرضا لاكثر ما يمكن ان يتصوره الخيال من الازياء
تبانا واختلافا . فكننت ترى الردنجات والطربوش سسه
الموظفون في الحكومة المصريه من المصريين والانكليز وفد حلى
كثيرون منهم صدورهم بالنيشين المصريه . وكنت ترى مدريس

موظفى حكومة السودان المدنيين اتخذت من القماش الابيض
وفصلت على صورة « الجاكت » والعمامة والقفطان والحية ترداها
الموظفون الشرعيون كالقضاة والمفتى وواحد او اثنان غير
هؤلاء . والفيراك او البنجورومعها القبعة العالية على بعض
اعيان السوريين او الاروام من التجار والمقيمين بالسودان .
وجيب حكومة السودان الرسمية على اعيان السودان . وبين هذا
الجمع المغمس بأرديه المابله عدد كبير فى الزى العادى على محلف
اشكله واوانه .

تزامت هذه الازياء المخلفة المتناقضة المجتمعة فى هذا المكان
وجعلت تتدافع نحو ساحة السراى . ذلك ان الحاكم العام
والمندوب السامى جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجلس
حولهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان
الذين تقرر الانعام عليهم بالاوسمة الى جانب من الساحة المحاطة
بداربزون والمرتفعة فوق ارض الحديقة بدرجات . وكان الحاكم
العام قد وقف يتلو البرقية التى ارسل بها جلالة الملك جورج عليها .
بلياسة عن اهل الى السودان ورد جلالة الملك جورج عليها .
فلما اتم تلاوته وترجمها فضيلة مفتى السودان وزع المندوب
السامى الاوسمة على اربابها . ومشاهدة ذلك كله هى التى
ادت الى ذلك التدافع بالمناكب بين كل تلك الازياء .

لذلك ما كادت هذه المراسم تنتهى حتى انفرط عقد المناكب
المنراصة وانقلب مدها نحو ساحة السراى جزرا فى انحاء
الحديقة الواسعة . ونزل المتعم عليهم من عليتهم وانخرطوا فى سلك
المدعوين تميزهم اوسمهم . وحدث نزولهم الى الناس شيئا
من الحركة سببها اسراع الناس اليهم يهنئونهم بما حازوا من
ثقة عاليه . فكانت الايدى تتصافح والشفاه تبتسم وحدق
عيون المندوب عليهم بلمع بمر الفيطه والرس ونحفص جفونهم
احيانا فى صورة التواضع والحياء مما تبتهج به آذانهم من عبارات
تقدير المهنيين وتمنياتهم « الخالصة » لهم دوام الرفعة
ومثوبة رضا الحاكم . على ان نظر الغريب عن الديار كان



كان الانجليز فرحين ، أما المصريون فكان يخالجهم شعور
الاسف وتائب الضمير

يسرعها ما علق على صدور أعوان السودا الصالحين من
أرسمة صبيغ كبريت صلبا ما كانوا يرسموا أنفسهم
لولا ما لبث من معنى التقدير والشريف . ثم ارداد أعفد
انقطاعا فصدت الى مازده وموائد الساي المعيرة على دم
نظرف في اجزاء المسود الحبيب

[illegible]

أحاط بعض مواد أساي جماعه من هؤلاء الاعيان من
اهلى السودان . وكان من صدق سوراني عرفه ومواف
الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صله وعرفه . فسار واباي
يحدث بيني وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام . ونفسه
شعرت واحسبهم شعروا ثناء هذا التعارف القصير باحساس
الاحتياط والحد الذي لاحظه على احوالنا المصريين من مابلونا

في حلقا وفي العطرة وفي الخرطوم فلم يزد ما تبادلنا وجماعة اعيان السودان في حديقة سراي السير جوفري آرثر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة وربما كانت هذه مبالغة في الحذر لا يقتضيها الموقف . لكنني كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجبا ان ارعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلسنا الى مائدة جلس اليها السيد احمد الميرغنى وفضيلة مفتي السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرفه وحسن الضيافة . وفيما نحن جلوس اقبل السير السيد على الميرغنى باسافهم الجمع تحية له واجلالا واقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده . وجلس الى جانبي في وقار وهيبة وفيما هو جالس كان اعيان السودان يقبلون عليه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجوه الرضى عنهم وحسن ابدعائهم . وكانوا كذلك يقبلون يد اخيه السيد احمد . لكنني اشهد اني ماريت ايمانا كهذا الذي رأيته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس باديا في خرابهم متجاسق كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خسوع واجلال مبينون بد السيد على وسطرون من طرف كسير بطره كهنا الانمار والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الاعيان شبان بسوح عليهم مظاهر الهدوء والاعساد بالفسح . ومنهم كبول وسبوح يرى على عوارسهم من الشيب ناصبا في سواد . ولكل من هؤلاء الشبان واسوح سلف على من يديور له من القبائل والعساكر لكنه يتقدم بهذا السلطان امام السيد على وهو مؤمن بان كلمة الرضى من لدنه اقوى من كل سلطان .

والسيد الميرغنى احترام خاص لكانته هذه عند النازلين في السودان من كل الاجناس والطوائف . ويزيد في هذا الاحترام ماله من صفات تملى على من يتصل به اكباره وحسن تقديره . وهو تحيف فحصر اللوامد في تقاطيع الوجه تتم عيناه ببريقهما اسديدا عن كبر من الذكاء والدهاء وتطوق غره العربي الرقيق الشفتين اينسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة

اقرب في صورها الى القلب التركي القديم الذي كان يلبسه
انور باشا وان لم تكن سوداء مثله بل اجتمعت عليها صنوف من
انوار سوداء ومدببة متوازنة متقاطعة . ويحيط بالقلنسوة
عمامة يصعب تحدد لونها لكن تهاجم لون اعنانه اسافا وبجوابها
حسنا . اما مقعنه وجيبه فعلى صورة ما يلبسه سوحناء مع سىء
كثير من الاحساس في الوانها .

ومع ما كان يدبها من الحبور والبهجة على المعجم عليهم بالاوسمه
والثرب من اعمال السودان ومودعى حكومته فلا ريب ان اسد من
كانت علام القبة بادية عليهم في هذه الحصة هم الاكثير سواء منهم
من كانوا في حكومة السودان ومن كانوا صليوفا او ساحرين
اما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور مبهم يخطف فيه
الاسف بالام بسبب الضمير . وكببراهم يسير كل منهم منفردا
اكثر الوقت وينظر الى ماحولة بعين الغريب الحائر . ولم يسد
اسار من الباسوات المصريين ولا صليوفا سراى الحاكم العام عن
هذه القعدة .

وحوالى منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادى لويد
من ساحة السراى الى الحديقة ومعهما حاكم السودان العام وبعض
الموظفين ، وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموما واهل
السودان خصوصا يعارفون بهم ويصافحونهم يدا بيد . قال
صديق :

- ان كل شىء يصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية
ولادى لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة في انكلترا تسعد
بمصافحة ثمانمائة يد مادام فى ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة
كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون
جماعات بعضها اثر بعض . وانصرفت ومن معى ميممين أحد
الأندية ونحن نذكر عيد الملك يقام فى الخرطوم نذكر ان مرور جلالة
ملك انكلترا بها وفيما نحن فى حديثنا حانت التفانية
من أحدنا الى أعلى سراى الحاكم فرد طرفه اليها وقال :

- على كل حال فما يزال العلم المصرى خفاقا الى جانب العلم
البريطانى فوق السراى . وفى هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون لملك
مصر فى الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا .

حكومة السودان في الخرطوم

في مقدمته كتاب 'أورد برينر المعنون « عبس الثاني » عبارة بحسب الوقوف عليها 'حسن بغير وسائل السياسة الخارجية في نوع غار بها وحسن ادراك ما تبذره حكومته السودان في الوقوف الحاسر من مظالم السطوط . فل اللورد :

« ان حجر الزاوية في سياسة مصر والسودان ان نضع حدا للامعان ان امس تمت رابطة بين الحكم والمحكوم عند انعدام روابط الجنس واللفه والدين والعادات الاجتماعية الا المصالح المادية . واعطى هذه المصالح خطرا ما كان متعلقا بالاعباء المالية . . لذلك يدعوا كل اطراف السياسة الى ان نخضع جميع الاعبارات الى ضرورة عامة هي الحرص على تخصيص الضرائب وعلى المسؤولين عن ادارة مصر والسودان ان يعتمدوا على انفسهم في تنفيذ سياستهم على الامم المتحدة المسار التي . فعلى من عندنا في هذه السياسة ذلك بان الامم المتحدة ليس امرا من ضياء عند الناس . وكثير من يوجه اليهم جرح اسعد . وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأكيد الراي العام المصري او العربي . فالاجنبي يميلون عادة الى الاحد بما سبق الاحد به في اذ كلنا من اعمال وتجارب . وقد تزايدت نفقات الدولة عندهم اخبر الى حد كبير وثقلت الاعباء العامة للمقااة على عاتقهم الى حد كانوا بحسبونه مستحيلا منذ وقت قريب . وثنا من اثر ذلك ان ساء تقدير الراي العام للاقتصاد وان تلبد الشعور القومي الى حد ما ساء اداره الشؤون المالية في البلد الخاضعه لانكسرا .

« ولن يتفك كثير من كبار الساسة الانكليز ولن تنفك الصحافه القوية السلطان من مواصلة جهودهم في البحث عن انهاء العلم ونسرد في مصر اد رونه الاساس الاول لبناء الحكم الدائى . اما انا فلا اظن ان من ما لى في المدارس والكلليات من تعلم كان يعد المصريين يوما ما احكم انفسهم ما لم يحوروا طبعهم القومى مما لا سم الا دريجا . وهذه ليست نقطة البحث الان . فادنا ارشد ان ابحت في نفقات التعليم وان اسن سوء الراى في التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة .

« ومن هجمات من نوعى اخرى جب صدها . فقد نج الادارى العرر . الذى تقدمنا نستطيع القيام به من خير ، في زياده الطرقي والكبارى والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثة ثم يجهل ، مع الحاجه ، النتائج البعيدة التى ترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل الصف

« اذك يحسن بانسب المسئولين عن شئون مصر والسودان ، بالغام بل عطفهم على هذه المشروعات حين مجرد النظر الى مزاياها . ان سعدوا عن الساسة الخياليين انعدامهم عن رجال الادارة في لدروين . وان يرجئوا ما سمدعى طائل النفقات من تلك المشروعات التى تستهويهم حتى يثقوا بان موارد الدولة تحتملها دون ان يتفكروا كاهل الجمهور بالضرائب .

ليشجعوا اتسار البناء وخصوصا التعليم الصناعى وتعليم اناك . ولتسجعا كذلك المشروعات العامة وغيرها من اسباب التقدم على ان ون هذا سيجع بمقدار لا يعصى الاجباء الى فرض ضرائب جديدة بقله . »

لسن من الحاكم والحكوم . عند انعدام روابط الجنس والفة والدين والعادات . غير رباطه المادية . هذه كلمة لورد كرومر التى تلخص كل ما جاء في العارة التى نقلناها بل التى تلخص الى حد كبير سياسة انكليز في مستعمراتها وفي السلاذ السابعة لها . وهى التى تجس هذه السياسة الاستعمارية البريطانية

امنازا وتفوقا على غيرها من سياسه لدول الاستعمارية
الاخرى . فليس من اغراض السياسه البريطانية الاساسية
ان تسير العقيدة الانجلومكسيكية في البلاد التي يحكمها . وان
من غرضها ان تسير فيها مبادئ الثورة الفرنسية ولا ان تحبس
فيها اهتمام الدخيم المسيحية . من ذلك قد جازت سياسة
النفوذ الانكليزي . لكنه - عرسا اساميا - يصوننا لده
اما العرض الاساسي هو ذلك لروابط الماديين ككلرا . من
اجراء الامراطورية . ولكن هذه الروابط ليست مادية
العواطف بحسب ان لا يكون فاندسيا لانكلرا وحده . من حجب
تسعى البلاد المحكومة بان اياها ورائها فساد . يتسوسه
مطاعرها نفس الفقار العامة نقصا . من حجب
الضرائب ورادة رفاهية المحكومين زادة تسعيرهم
بالضريبة الى حاكمهم .

وقد اتبع هذه السياسه في مصر بدقة تامه مدة وجود لورد
كرومر بها . ويمكن ان يقال ان اتبع الى ما من الحرب العالمية
الاولى . لكن هذه الحرب دبت الى انفصال كل من ورائه ان غير
المصريون من طابعهم القومي على ما ورد في عماه لورد كرومر
.. وكان من وراء ذلك ان اسستقلال مصر . اما السودان
وحكمته في الخرطوم فما تزال السيماسه الجارية فيه هي يده
السياسه التي رسمها لورد كرومر في كلمه سادته .

فمع ان كثيرين من المفسرين بالخرطوم يستكون من فداحة
الضرائب التي تؤدونها . والتي تبلغ ربع قيمة ربع المالى القائمة
بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب في سائر ابناء
البلاد مخفضة حتى لا يشعر اهل السودان بثقلها . وليس صير
السياسه البريطانية ان تسكون ضرائب الخرطوم فداحة واكثر
المفسمين في الخرطوم ، كما رايت من قبل . ليسوا سودانيين ، من
اكثرهم موطفون وتجار من المصريين والسوريين والارام
وغيرهم . وهؤلاء لا شئ من الخسائر في ان يمس

الحكومة بتخفيض الضرائب التي دفعوها وكفهم أن تغنى سوفير كل أسباب الراحة والطمأنينة لهم . وحقيقص الضرائب بالنسبة لاهالى السودان أنفسهم موضع عناية دائمة . وقد عهد بها وب نظام أعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد سيسر أحد اكابر الاقتصاديين والمالين الاكبر . وبرغم ما بداه من عمل اى ربح هذا المذهب بسق فارجء حكومه السودان اياه ل يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كال اكبر على نفسه . بر من منه احاص فيهى باخرطوم يعقو اكبر كسر من لرب اصحه الذى يعاصه راصى بالحياد فى هذه البلاد اعاصه لخدم الامبراطورية والخدم السودان معها .

وحقيق عبء الضرب برأسه نفس في 'إراد الحرية' العامة
وراءه نفس هذا البعض موارد أخرى تدرى مراتب مباشره أو غير
مباشرة بعدد على الحدوده اعلم بواجبها . ومرايه السودان براد
عدمه عدم سبب الموارد جديده اى مانعاً حكومه السودان
سعى جعلها انكسر استعمل السودان عمه كان من قبل في حاجه
الى ما كانت مصر بوده له . وبعد انفسك ان يكون رايه
استعمل من بين عمده الموارد جديده . تمام رايه سباط
استعمل من بين هذه الموارد بعضه . وتعالى اراد ان تحت حكومه
السودان بعد رهن بعيد من فرقه من طرق توفير السبب الصريحه
في رايه . وقد كانت حتى المازي من قبل السودان في رايه
وغير يصعب فيه سبب السباط وما برال توده انجنى مسيره في
مصر حشد السودان . لكن الحايه فرقه في مباح سيره
مقاومه شديده انجنت ابادتها في هذه المناطق ابدت رايه . ومراي
الحرب العلنه على الملايا ناشبه وما تزان حكومه السودان عمل
على مقارنتها لمضاعفه عدد السكان ولمضاعفه نشاطهم .

كذلك عنت الحكومة بمحاربة الزهرى المنتشر في السودان
انتشارا مروعا والذي يجنى على الأقباط جنائته على الجيل الحاضر
وانك لتعجب أشد الإعجاب بما تبدي الحكومة من نشاط وعناية

في هذا السبيل . فهي تعالج المربي بأجر زهيد الى حد يجعله في حكم
المجان . ينسر الدعوه لهذا العلاج في طون البلاد وعرضها بمختلف
الوسائل . واطباء الحكومه من السورين وغير السورين
المسربين في اراضي هذه البلاد يساعدون الحكومه المركبه
بالخرطوم في هذه المجهودات خير معونه .

ومرطوق راده السكان وريادة نشاطهم برفع الحكومه ان يجد
السد اعماهته بمقدار كاف ينسر زراعته من في البلاد .
تملا من الافدنه في الجريرة الواقعه بين النيل الارفي والابيض صاحبة
لاننتاج القطن كمان ان اراضي واسعة اخرى بحاجة لاساجه .
واذا كانت التجارب التي تمت في الجريرة الى اليوم قد أسفرت
عن نقص تدريجي في المحصول بسبب الوباء التي نصيبه حتى
اصبح الفدان الذي كان ينتج ول رعه خمسة فنانير ونصف
انقطار من صنف السكلاريدس لانتج الا قنطارين وربع القنطار
عد اربع او خمس سنين من زراعته فال سرعه الجزيرة
وحكومه السودان تملان التغلب على هذه الافات بالوسائل
علمية . ومتى كان ذلك ممكنا فمشكلة اليد لعامله هي المشكلة
الكبرى . والتغلب عليها لا يكون الا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم
ومسألة آفات القطن هي الآن من المسائل التي تستنفد من
حكومة السودان عناية كبرى . وقد تخصص للبحث في هذه
الافات وعلاجها اربعة عشر عالما نباتيا من خير علماء الانجليز في
هذا الامر يقيمون بالخرطوم كمان في لندرة جمعية علمية نباتية
تتضمن وهؤلاء العلماء في عملهم وابحاثهم . فاذا نجح هؤلاء في
مقاومة آفة القطن نجاح قلم انصححة في مقاومة الملاريا
والزهرى كفلت الحكومة محصولا وافرا من القطن يحقق
اننى حد كبير مائزى السياسة لامبراطورية اليه من رغد
السودانيين وفائدة انجلترا فائدة كبرى .

وفي انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكثر
الماشية وجعلها من مواد الصناعات الايراد كما تعمل لرويح
محاصلات السودان ترويجا يتفق ومصلحة انجلترا

والتي تكون هذه المحبوبات مسحة جب ان تكون الامن شاملا
البلاد وان يكون في سلم بعضهم بعض . وهذا هو موضع
عناية الحكومة الاداري . وعلى سبيله لا يلقى من المسفات
مالافيه حكومه مقده بانظمة حامية يرمى الى حماية حرية
الافراد في صورها المخلصة . نظام الاحكام العرفية مايزل
هو اسقام السائد في السودان وكلمة الحاكم العام هي الكلمة
الغيا لنفذة

ويبدو في مصالح حكومة السودان المختلفة نشاط كبير .
فانزل مائزنا الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت
دعا مدير المخابرات - وهو كمدير الامن العام في مصر -
الصحفيين الى اجتماع عنده الساعة السادسة . وذهبت في
اموعد بعد ان اجرت السيارة في سوارخ نريه ، وصعدت في
ساحة الارهاق فليس الوجهته بلقنة على سلم ضيق من حجر
احمر حتى انتهت الى عرفة لمدير . فقبل الصحفيين
جسدي على معدة ادركت لأول راسيا انها احضرت خبثا
مدر بعينه وان المكان ليس به عرفة غير معد المدر . ومن
هنا راسر مسحة الاعراف في سلم عقدا سرح مدير
احمر برت برامج اياما في اعز يوم وبرامج حقله فراح
احرار . فيوم الاحد لسر حمر عدا اسفر وليصنع كل به
مسة . ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور
حقله الشاي . ويوم الثلاثاء عدا في به . اما الاربعاء ففي
مسائه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا
الى الخرطوم صباح الجمعة . ويوم الاحد يسافرون قافلين الى
حلفا بالقاهرة .

على ان الغرض من الاجتماع عند مدير المخابرات لم يكن
مجرد معرفة البرنامج ، بل كان لتفاهم على طريقة ارسال
البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير ان يرتكب الخط بكرها ،

ومن غير ان ترتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب الاعراف والى دفع الاجور . انتهى الحال بالاتفاق على ان يعطى الخطيب الذى سئلنى فى الاحتمال طهر لاربعة على ان لا يدع الا بعد الفاتحة شهر الخمس . وكان ذلك يسيرا . فضاء الاسارده الى مصححه للعراف فى الغايه وفى قدره كذا لاربع احصى الا بعد بدور اواخر اخرى . وانفق كذا ملى . رسل كمنسوب من مندوبى صحافه بددا بعضا من الكلمات لانفسه حتى ارجع الحظ وياجر لربى . وعلى ان يدفع كل صحفى مائة خرطوم من حصصه الى ربه . بنفسه الى مكتب الاعراف . واول ورتب . رسل هذه المكاتب بمندوب من قبله . دفع سعر رطل من صحف خمس

وفى صباح اليوم الذى رغب من رسل مصححه سعر فانه لادفع النامين ولتم انفسهم منى ما انفسا حصصه . من الاخبار عليه . كان منى حتى شجب لمى اعبه . ذهبت اليها . وبعثا عرفه من ريس لاسكيري غايه فى البساطة ولم نجد عنده مانجلس عليه مما اضطروه لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . ولم ينش بسا التدي . وبعد الغاية التى قصدنا اليه لقضائها ، فى دقائق نادى اليه الموظفين المخلصين فجاءوا لنا بالتذاكر الصحفية ، وتسلموا مبلغ النامين الذى اردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة . وعلى اثر خروجنا اخذ اصحاب المقاعد مقاعدهم .

وتزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم وهو مصرى من الاقباط نه بالسودان اكثر من عشرين سنة ومع ما قابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الاخر مقاعد نجلس اليها . ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استاذنا وظل منصرفا لعمله مكيا عليه . وسألته عن ساعات العمل فاذا متوسطها فى اليوم بين ست وثمان . لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل انجاز حظ منه عظيم .

وهذا النشاط تشهده في غير هذين من مصالح حكومة السودان . ولعل النظام العرفي الذي تخضع له هذه البلاد والذي يجعل كلمة الحاكم العام العليا في كل شيء له اثره في هذا النشاط الدائم . ولئن صح هذا لكان مصداقا لان المبادئ المطلقة لا وجود لها في الحياة . فليس شيء خيرا مطلقا وليس شيء شرا مطلقا ، بل في كل شيء من الخير والسر والنفع والضرر نصيب . ومن استطاع ان يغلب جانب الخير في شيء من الاشياء او في نظام من النظم وذلك بعض احكام على ان هذا النشاط الذي راى لا يتعدى ماضى به اروابط المادة التي اشار اليها او ردكره في كمنه التي صدرنا بها هذا المجلس . فمثل مستوى ادار شؤون السودان من اريده اراح اهبالا مظهره في حيوته اسودان راخر صوم براسر . وقد راى في العنصرية كيف تقف المدارس التابعة للحكومة عند تخريج صغار المرحف ومن يقومون ببعض اعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف . وكيف تقف مدرسه الامريكان عند تعليم الابناء بما لا يزيد عن مقابل السنة الثالثة الابتدائية . وعناية الحكومة الرئيسية في الخرطوم بشؤون التعليم لا تتجاوز مثل هذا الذي راى عند انعطيره كثيرا . ففي الخرطوم حقا كنه غردون . وبها مدرسة للطب انشئت حديثا وبنيت على طراز كليات انكلترا لكن التعليم في كلية غردون لا يتعدى التعليم الثانوى على نظامه القديم وبرامجه القديمة في مصر ، اى انه لا يتعدى أن يكون وسيلة لتخريج موضعين ارقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الاخرى في السودان . ومدرسة الطب لا تزال مدرسة حديثة وجليها فسور وما رال نظام تعليمهم غير محدد ، وهو يجب ان ينعى مع اسباسبه العامة التي ترمى الى اقامة العلاقات المادية الخمسة بين احكامين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا سببت بهذه السياسة في السودان . فاسودان بلاد واسعة مراصة الاطراف واهالها مايزالون على جانب من السداجة عظيم . وميزانيتها لا تتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم ما بذل من العناية لتنظيمها وزيادة



وإذا غضبت الحكومة على أحدهؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

ايراداتها . وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التي انشأها الجيش المصري بين حلفاؤ الخرطوم وبرغم المنشآت التي تمت بعد ذلك فوصلت ما بين الخرطوم والابيض وما بين العظبرة وبور سودان وكسلا . وما لم توطد الحكومة أركان الامن في البلاد وتشعر المحكومين بأنها تجمع في معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيرا عليهما ان تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها .

فأما شعور المحكومين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التي تقلبت على التعايش وفتحت السودان وأخضعت عصاته . ولئن كانت هذه القوة الاولى مصرية فالانكليز يعتقدون ان وجودهم على رئاستها يجعل اهل البلاد يعتقدون أنهم وحدهم هم اصحاب الكلمة سواء أ بقيت هذه القوة في البلاد أم اخرجت منها .

وأما بر الحكومة فمن مظاهره ما قدمنا من عنايتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيضها الضرائب المباشرة عليهم ، كما ان من مظاهره هذه الانقلاب وكسب الترفية الى وقت على شيء من امرها يوم عيد الملك وقدروى لى كبير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على أحد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

وليكون الناس اكثر شعورا ببر الحكومة بهم تنظم الحكومة الدعوة في انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكر الناس بما كانوا خاضعين له من قبل من الوان الاضطهاد وما كان يتابعهم في الماضي من مظالم ومغارم وعمل ، ولما كانت الصحافة قليلة الجدوى في بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوى الشفوية على لسان موظفي الحكومة والمصايين بها من الذين يكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من اهلها ومن كان اجنبيا عنها ، هي العمدة في هذه الدعوة الى تساعد الى حد كبير على تاييد النظام والطمانينة في ربوع السودان . على ان بعض الدعاة يغفلون في دعوتهم الى غير حد . واذا صح ما سمعته من ان احدهم ينسب وجود مرض الزهري في السودان الى ايام دخول العرب فيه منذ قرون ماضية كان ذلك ادل ما يكون على المبالغة والاغراق فيها .

فإن هذا المرض - الذي يسميه كثير من أهل الريف في مصر « بالفرنجي » أسارة إلى دخوله مع الأفرنج أيام الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر - لم يعرف في مصر ولا في السودان قبل ذلك التاريخ . دع جانب أغراف الدعاة في سوية احكم المصري في السودان فهذا ما سمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبهم في انكلترا

على أن عدم جدوى لصحة في بلاد كالسودان لم يمنع حكومه السودان منذ الفتح من أن تسمى بعنايتها جريده كانت من قبل ذات اتصال بجريده المقطع في مصر . تلك « حيساره السودان » . وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى ان أبجبه نظير الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر . من حينئذ استغلب حضرة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من أهالي السودان . الذين تعلموا في الارهر .

وهذه خطوة في تنفيذ السياسة البريطانية التي تقتضي بأن تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة أخرى ملها أن حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد أن كان المصريون والسوريون يلحقون بها . والغرض من ذلك أن يزداد عدد المخرجين من هذه الكلية من أهالي البلاد لتسند اليهم الوظائف الصعبة في حكومة بلادهم . رغم ما كان من اخراج عدد كبير من الموظفين المصريين فما زال في خدمة حكومة السودان عدد من المصريين أما السوريون فما زالوا في خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت النفقة بهم اكيدة مطمئة . وهم لارباب اهل لهذه الثقة لانهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام . . . ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم في السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصبا او عاطفة يخشى ان يكون لها في السودان اثر

وهؤلاء الموظفون في حكومة السودان من السوريين والمصريين ينفذون السياسة التي يرسمها هؤلاء الرؤساء بذكاة ودقة . وهذه السياسة تلخص في تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين . وهي من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها في بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس او لغة او دين

يَوْمَ يَأْمُ دَرْمَانَ

قمت مبكرا فبصرت بأشعة الشمس تطل من خلال النافذة
المقفلة طول الليل وكأنها يد أمروم تملس على ابنها بحنان
وعطف كي توقظه من نومه . وسمعت وما أزال ناعما بدفء
الغطاء اصوات العصافير في حديقة الفندق وكلها البهجة
بمشرق الشمس ويعود النهار والنور . وجاء الخادم بالشاي
والبسكوت فطلبت اليه أن يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا اضيع
الوقت وكى أدرك وصديقي ترام الخرطوم الذى يقوم في
منتصف الساعة التاسعة قاصدا المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك
عبر النيل الى شواطئ أم درمان
وكنا عند المقرن حوالى الساعة التاسعة . وانتقلنا من
الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم
عربة اتوا بها ليطوفوا ام درمان فيها ، كما انتقلت مع جماعة من
الاهالى الحمر والدواب . وظل هؤلاء فى الطابق الاسفل بينما
صعد الدين يدفعون اجرا لدرجة الاولى الى الطابق الاعلى .
وتحركت الباخرة على هون وفي هداه وسكور بعد ما انقضى ما
كان اصغرها قبل بحركتها من رفير فى الهواء وسهيف
واستدارت الباخرة فاذا أم درمان ما تزال فى الحجب واذا
اكثر المسافرين يوجهون ابصارهم صوب الخرطوم يطمع كل منهم
فى ان يشملها جميعا بنظرة واحدة وتبدي الشارع الممتد على شاطئ
النيل الازرق قامت عليه الاشجار الضخمة مكلفة الهام بخضرة
واهية ، كما تبدت من ورائه بعض مباني الخرطوم وطرقها كأنها
صوامع نساك نثرت فى الصحراء على مقربة من واحة ذات خصب

ونماء . وطلب الباخرة تستدير ازاء جزيرة توتى زهاء ساعة حتى اذا قاربنا الشاطئ وجه المسافرين ابصارهم صوب عاصمة الدراويش . . . الا ان للذين يعجبون بالخرطوم لعذرا فهذه المدينة القديمة لا يزين شاطئ نيلها الابيض ما يزين شاطئ نيل الخرطوم الازرق من شجر . بل يقع النظر عند مرعى الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر كي تتخطاها الى ان تغوص اقدامك فيها . فاذا جزتها بعد جهد وبلغت تراما هو لترام الخرطوم صنو توام صادقت عينك من المساكن والمباني ما يزور عه بصرك لحفارته وقذارته . لكنك تسعر كلما سار السرام وتغلغل في المدنه انك في مدينة سودانية حقا . وبرى بعد برهة ان المباني الواقعة عند المورد عنوان سوء لام درمان ، وان فيها من ما في الخرطوم من المنازل والماجر والمناظر وان لم يكن فيها ما في مصر حكومة السودان من افسواء الكهرباء ومن مظاهر المدنية التي اقامها الحاكمون في مقر حكمهم للترفيه عن انفسهم ولتيسر لهم الحياة في جو وفي بيئة وفي وسط لم يألوها .

نزلنا من الترام عند منجر مصري من اهل اسوان عرفناه في الخرطوم . ولست اغلو ان انا قلت ان هذا المتجر وبعض المساجر الواقعة الى جانبه اجمز وادعى للاحرام من اكبر مناجير الخرطوم . على ان ذلك ليس عجبا وصاحبه يصل بلاكتير مباشرة وعنده في مصر تجارة كبرى . وقد قابلنا بالترحاب وسألنا ان كنا نشرب « الجبنة » والجبنة قهوة اهل السودان . وانتظرت لارى اى نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون عيش البداوة . واستعرضت اثناء انتظارى صنوف القهوة الساخنة والباردة مما يصنع في مصر وفي اوربا . فنحنس في مصر نطحن البن ونضعه في الماء الى ان يغلى ثم نشربه ، اما في اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء الغالى في مصفاة وضع فيها البن كي يمر الماء به وينال خيره . وكنت افكر في هذا حين جاءت « الجبنة » . افتردى ما هي ؟ وعاء كروى من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن

فيه بعد ان يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك في الماء ثم تغلى
فوهة الجبنة بقطعة من ليف النخل كي تحجب البن المدقوق
كما تحجبه مصفاة الفضة او المعدن حين يصفى الماء . وهذه
هى قهوة اهل السودان ! أرايب . . هى اذن كقهوة الاوربيين
سواء بسواء لا فرق بينهما الا فى الاناء التى تصنع فيه . واذن
فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع ابسط صور البداوة ثم لا
يكون بينهما فرق الا فى الصورة والمظهر . ويكون هذا المظهر
وحده هو الذى يخول لاصحابه حق حكم الآخرين والتحدث
عندهم .

وقمت وصاحبى ارود عاصم ، الدراويس لارى بلدا سودانيا
بالفعل . ما اكبر الفرق بينهما وبين الخرطوم ! . ان بها
لازقة ضيقة تنفر الخروم وشوارعها الواسعة من ضيقها ،
وان بها من الصناعات الوطنية البسيطة ما لا يتفق ومظاهر
النظام الانكليزى . وكل ما استحدث فيها من اسواق كبيرة
ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنها كمدية
سودانية . انظر الى الزقاق الضيق المسقف بالواح من
الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة
.. هذا هو مقام صناع المراكب السودانية . وصناع المراكب
السودانية لا يستوردون الجلد مدبوغا ولا يلجأون فى دباغته الى
أحدث الوسائل العلمية ، بل هم يكتفون اكثر الامر بالقائه فى
الشمس حتى يجف لظاه . ومن الجلد الذى لم يجف بعد
ما هو ملقى امام دكاكين اهل هذه الصناعة . وانظر الى
ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة . اليس يحى ذكرى
شارع اسكس فى اواخر ايام الماضى فهؤلاء العمارين قد رزت
دكاكينهم فى الشارع بحسن كل واحد منهم فى هيئة ووقار كأنما
هو قاضى الشريعة . وهذا كان جوهرى ما تكاد ترى فيه جوهره
واحدة وان رايت بعض آنية دقيقه وصاحبه فيه جالس
وكانه احد يهود الصاغة . ثم قف الان قليلا فمتع نظرك
بصناعة وطنية تجذب السائحين من الافرنج وغير الافرنج اليها .
هذه صناعة العاج . فهذا سن فيل قد جوف ورسمت فيه فيلة



وكان جواب العجوز الذي اهتز السودان من عماله .
لم يعودوا يجيئونني الا بتسعين بلحة !

تصغر واحدا بعد الآخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة .
وهذه زخارف ظريفة من العاج مموهة بالذهب او بالفضة .
لكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة الثمينة ما تزال متأخرة
عن مثلها في مصر تأخرا كثيرا . وما تزال توضع في دكاكين
لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم . دعك الى جانب هذا
من كثير من مظاهر اليؤس والقافة مما جئنا على وصف بعض منه
عند اسواق الخرطوم وعند مخازن حبوب سكة الحديد . .
مع هذا كله فام درمان مدينة لها حياة المدينة . وفي هذه الازقة
والطرق والشوارع معابد تحدث عن اجيال واجيال . ولهذه المباني
القديمة الغير المنتظمة تاريخ ، عدم انتظامها اول شاهد عليه .
كلا ! ليست ام درمان عزبة او مزرعة لمالك خططها كما شاء له
هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور . وهل في
غير القبور حياة وحضارة ؟ بل انك لترى نفسك وانت امام
فضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا حاجز منخفض
من بناء ، قد شعرت بشيء من الجلال يملأ نفسك ومن الهبة
تفيض بها حوائحك . ذلك حين تقف امام جامع المهدي حيث
يوجد أثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . اس
كمسجد الخرطوم ومسجد ام درمان وامثالهما مما ترى في بلاد
المسلمين طرا . بل هو فضاء منبسط ما تكاد تحيط العين به في
نظرة لعظيم سعته . وليس بسا وبين الطريق الا اسوار بلغ من
قلة ارتفاعها انها لا تحجب ارض الفضاء الذي تحيط به عن عين
الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدي . وبحسبك ان
يذكر هذا الاسم حتى يمتلئ هذا الفضاء امامك بالصور والمعاني
وحتى ترى يعين بصيرتك جبلا كاملا من اهل هذه الاصقاع وقد
حشد في هذا المكان وخر ساعة الصلاة ساجدا مؤمنا بان امامه
ومالكة رسول الله او خليفة رسوله او هو الذي تجسد
لهدى الناس وخلصهم . اجل . . ففي هذا الفضاء جمع
المهدي اهل السودان جميعا جيلابل اجيالا . وفي ام درمان كانت
مئات الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونيين احيانا ، وكلهم
يؤمن بالمهدي ويرى فيه روح القدس . وما يزال هذا الفضاء

فضاء كما كان . ولئن دنسته اقدام لا تؤمن قلوب اربابها
بقداسة المهدي مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التي طلعت على
المهدي وعباده ما تزال تطلع فتعت من اشعتها ما يحيي امام
الخيال كل هذا المنظر القوى الحي منظر المؤمنين اشد الايمان
المتعصبين اشد التعصب، يحيطون بمعبودهم يجلوونه
ويقدسونه

على ان رجلا من الذين عمروا هذا الفضاء ايام كان يدوي
باسم المهدي وكان له فيه يومئذ شان يذكر ما يزال حيا يرزق .
ذلك هو عثمان دقنه . فقد كان هذا الرجل قائدا ينشر دعوة
المهدي في شرق السودان بينما كان المهدي ما يزال في الابيض
وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن ام درمان . فلما
استتب له الامر بعدما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى
التخلي عن السودان كان عثمان دقنه في طلائع قواته وقواده ،
ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كتشنر بعد ثلاثة عشر
عاما من وفاة المهدي قبض على عثمان دقنه اذ كان امره قد
استفحل وشوكته قد قويت . وظل هذا الرجل في السجن
وكانت حكومة السودان قد اذنت له في اداء فريضة الحج
فسافر مع شاب من اقربائه يريد بيت الله الحرام واجيا ان
يقضى بمكة ما بقى من ايامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان
نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة
فيه الى معتقله . وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتيا . وانك
لسفوق على رجل مثله تحدثت به السخوخة الى احلام الطفولة
من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا
حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما ساله عن شانه وما يمكن ان يشكو
منه وما يمكن ان يشتهي كان جواب العجوز المتهدم الذي اهتز
السودان من اعماله واعمال رجاله سنين تباعا : لست اشكو الا من
شيء واحد . ذلك انهم ك"وايجيئونني من بلح التمر كل يوم
باربعين ومائة بلحة . اما الان فلم يعودوا يجيئونني الا بتسعين .
هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه . وفي عد التمر الذي

يؤتى له به كل يوم كان يقضى وقته . وسال السردار في هذا الامر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم رأوا هذا التمر الكبير خيرا له . قال السردار اعيـدوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله واعصابه كل هذا الاجهاد الذي شكا اليوم بسببه .

هذه البقية من عثمان دقته ، هذا الظلل الذي يندب التمرات التسعين بعدما كان صاحبه في الشباب لا يعرف غير البطش والثورة هو الان خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد ان كان اسم الله واسم المهدي يدويان فيه كل يوم دوى الرعد وبعد ان كان له ما للرعد من نذر السماء

فاذا انت جاوزت هذا الفضاء المتلىء بصور الماضي وسرت في طريقك متجها الى وسط ام درمان رايت عن يمينك مسجد ام درمان الذي شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عبر التاريخ ما يحدث به وهو ان عصرك ومن عمارة اقرانك



وام درمان بلدة سودانية . صحيح انك ترى فيها بعض ما ترى في الخرطوم من متاجر للسوريين وللمصريين ولجماعة من الاوربيين لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة ام درمان ، بينما هي قوام حياة الخرطوم . ثم انت ترى ابدا الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين انفسهم . بل انت ترى على هذه المتاجر مسحة من معنى السودان لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فاذا اوغلت قليلا في قلب البلد رايت الحياة السودانية بكل معانيها . ورايت شيئا عجبا . فالسودانيون في هذه الحياة السودانية ليسوا كأمثالهم في جو الخرطوم . فقراء الخرطوم من السودانيين تبدو عليهم وحشة الفاقة والمها وبؤسها اما فقراء ام درمان فلا يابون ابتسامة للحياة تسفر عن اسنانهم البيضاء الناصعة . ولعل السر في ذلك ان هؤلاء يلتزمون مع جو بلادهم فليس

بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من اسباب الرغد والرفاهية . او لعله الشعور بالحرية ان ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القرينة ما يجعلهم دائمي الاحساس بمراقبتهم ايهم مراقبة ضيقة . على كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا اكثر مرحا واشد بالحياة اغتباطا . مررتا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبي يساومهن . والرهط لباس الفتيات ياترن به ما دمن ابكارا . وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين او ثلاثة قرايط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد انضا وهى كثيرة كثيفة ، فاذا شددت الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتهما وليس يحضرني للرهط شبه فيما تقع عليه عين اهل الحضارة الالباس بعض الراقصات فى الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى . غير ان بينه وبين لباس الراقصة ما بين (الجبنة) وانهاء القهوة الفرنسية من فرق . فاذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبي يساوم بائعات الرهط ويسألهن ما بال هذا الرهط احمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعى ؟ فابتسمت الفقيرة السودانية ابتسامة قانعة وجاهدت لفهمنا واجتهدنا لفهم ان هذا المصبوغ احط فى صنف جلده من الآخر وهو لذلك اقل منه ثمنا . ولتزيدنا اقتناعا تناولت من تحت مقعدنا جلدتين احدهما ارق من الآخر حالا وهو الذى يصبغ لتوارى الصباغة سواته ثم امسكت بيمنها نصلا لسكين قديم ولفت بعض الجلد على ابهام قدمها وشدته اليها بيسرى يديها وارادت ان ترينا كيف تصنع خيوط الرهط المتدلية من حزامه . كل ذلك من غير ان تفارق فيها ابتسامته الناطقة بالطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياه . قال صاحب من السوريين المقيمين فى ام درمان كان معنا : ليت الحظ يتبع لكم ان تشهدوا حفل زواج هنا . كنتم فيه ترون صورة ظرفة من صور الحياه السودانية . وكنتم تدهشون مما فيه من شبه بالحفلات الاوربيه مع سراف فى التقدم والتبريز على

الأوربيين ففي هذا الحفل يجتمع بنات الطليقة التي منها العروس
فترقصن ويغنين . ثم يتقدم الحطيب الى عروسه يرافقها
وهي اذ ذاك عارية لا يسترها الا هذا الرهط الذي ترون . فاذا
تم دور الرقص امسك بيده سبعامن خيوط الرهط فجذبها جذبة
واحدة . وان اقتلعها فهذا الرجل الذي تفخر به عروسه . اما ان
عجز عن اقلعها فله ولها العار والخيال . وكثيرا ما يترتب على
العجز من جانبه فسخ الرواح .

فال صاحبى الذي جاء واياى من الخرطوم :

- وما برع حيوط الرهط الى جنب روح سنان حمر الهنود !
فلسب اذكر ان مرات عظيم ان السنان الذي يريدون ارواح
يحضرون الى حلقه يصف حولها باب العبيته ثم يتقدم كل سنان
الى من ينزع ماحول أحد ضلوعه من اللحم و يمر حول الضلع خنقة
من حديد يشد اليها حبل متين ربط بعد ذلك الى تسحره او
نحوها . وبعد ذلك يتراجع المسمى للوراء بكرهه حتى يكسر ضلعه
وتخرج من صدره حلقة الحديد واى الشبان كان اكسر احمالا
للالم حتى تمام هذه العملية القاسية فله ان يجاز من شات
اقبيلة من شاء . أما هنا فما احسب جذب حيوط الرهط
السبع وانتراعها الا ايدانا بان ايام الرهط انتهت وآن لقناه نكور
امراة .

ثم تابع السورى المقيم بأم درمان حديثه :

- لعلك لم تعد الحق فى شىء . فقد سمعت ان النساء كثيرات
ما يحزنن الخيوط السبع قبل رقصه العرس حتى لا يسهقن على
الخعليب فلا يكون انتزاعه اياها الا وسيلة اعلان انحراف عروسه
فى سلك النساء وخروجها من سلك البنات .

وتركنا السوف وصانعات الرهط وبائعاته وعدنا ادراجنا لتناول
طعام الغداء عند تاجر سورى ظريف دعانا الى بيته . وبیت هذا
التاجر مثل غيره من بيوت السودان صنع من اللبن او من « الجالوس »
وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبليّة لتغير الهواء
الصالح فى السودان اذ يكون شماليا أحيانا وجنوبيا أحيانا



آه کو سعلت بمشاعده حمله عرس سوادانی

أخرى . وبه قضاء غرس صاحبه فيه بعض الاشجار والزهور لتكون
للمين بهجة وحين القيظ ظلا تبقى الانسان به لافح الهجير . وكان
الى جانب هذه « الجنيينة » الظرفة قضاء آخر متسع خصص لتربية
الديكة الرومية وجدنا به حوالى الخمسين او الستين منها حين
دونا نرى البيت ومشمولاته .

ويعيش هذا التاجر فى سعة من النعمة وينهل من صنوف المتاع
المختلفة بما يرفه عنه الوحدة ويهون عليه العيش فى بلاد نائية
يسقى البرد كى يعود بها الى أهله ويسقط رأسه فكور فيه موضع
الإعزاز والاكرام . فعنده « فونوغراف » لطيف جمع له من
مختلف « الاسطوانات » اشكالا والوانا ، وفى ركابه نجار سورى
يقيم بأمر درمان هو الآخر ويتقن اللعب على انكسجة اتقاننا حسا
وكان معنا بين الذين دعوا الى القداء سورى آخر جميل الصوت
وانتظمت الحلقة وبلغت من البهجة أن نسى الانسان أين هو وان خل
اليه أنا فى احدى بلاد سويسرا نتمتع من بديع جمال الطبيعة
بخير ما يستمتع به الحس الظمى الى معانى الجمال . فلما بدأت
موليات النهار تولى ذكرنا أنسامدعوون الى طعام العشاء عند
أحد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة
اسرام الذى أفلأ الى الباخرة وإلى الممرن وإلى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذى قضيته بأمر درمان فى نفسى أحسن الأثر .
فقد رأيت مدينة سودانية حقا . ورأيت حياة سودانية يشعر
أصحابها أنهم فى بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وأنه فى حمايتهم
وهم ليسوا فى حمايته شأن السودانين المقيمين بالخرطوم .
وهذه الحياة السودانية فى أمر درمان هى التى قضت على ما كان من
محاولات للقضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء . بل
أن من الناس من يعتقد أن الجسر الذى أنشئ الآن بين الخرطوم وأمر
درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد إليها كثيرا من سلطانها
أيام كانت عاصمة الدراويش . وما اظن واحدا من السودانين
الا يغتبط لهذا ويسر به . بل أحسب أن الذين شعروا حين
مقامهم فى السودان بانعطاف قلوبهم نحوه ليسمعرون هذا الشعور
وليحفظون من أمر درمان لا من الخرطوم ذكر السودان الصحيح

حفلة افتتاح خزان سنار

الأربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة الأربعون مساءً : القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسمياً

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحاً : الوصول الى مكوار والى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحاً حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر . مشاهدة وابورات الخليج ببركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحاً :

الوصول الى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هي مواعيد السفر للحفلة الرسمية التي سافرنا جميعاً من مصر وسافر بعضنا من لندرة الى الخرطوم لحضورها . ولقد وزع علينا منذ وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

واذ كنا ضيوف معالي حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان اثناء الرحلة كلها براحتنا . لكنها كانت أشد عناية انه السفر من الخرطوم الى سنار والعودة من سنار الى الخرطوم . فأرسلت إلينا في منتصف الساعة الثامنة من مساء الأربعاء ٢٠ يناير عربات كبيرة تنقل أمتعتنا كما أرسلت سيارات في الساعة الثامنة والربع كي نستقلها الى المحطة .

وما كدنا تصلها في هذه الساعة التي أروى فيها الليل سدوله
على الوجود حتى الفينا جمعاً كبيراً من الرجال والنساء لا يتيسر
تمبيره في هذا الوقت . فلما أذن للقطار أن يتحرك في الساعة
الدائمة والدقيقة الأربعين ارتفعت أصوات هذا الجمع الحافس
بزعزعة النساء وبسوء يشبه الهبّاء من الرجال . واستمرت
هذه الزعزعة زمناً طويلاً كان القطار يسير في مناهل الهوينيا
مسيراً إلى الشرق كي يحدّي السيل الأرضي ويسبع سائمه حتى
يصل إلى سنار .

هذه "تجموع الحافلة وهادئ النساء المرغرد لا تعرف جمهورها
التبري سينا من أمر حراس سنار . وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا
شبه سينا أنه سر لهم لأنه يحجر الماء فيما وراء ذلك البلد الذي
حجراً يحول دون فضاء من الأرض على حاض أراضيه
كما أن يفض من قبل فضاء لهم الفرصة التي يرون فيها
الندرة . لكن هؤلاء الرجال حسدوا لأن حكومتهم السودانية
أرادت أن يحسدوا وهابيت سينا رغرد لأن حكومتهم السودانية
أرادت أن يرغرد . رغم جميع أراجبه عليهم طاعة أولى الأمر .
ولهم في هل مصر أسود حسنة . يحسدون لغيبه ولغير غيبه في
مواطن كثيرة حسب ما تملئ به أهواء الحكام وشهوات السياسة
وانطلق القطار يسرى في دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب
الأرض . وبتنا جماعة الصحفيين في شغل بتلاوة الخطب التي
وزعت علينا والتي أعدت ليلتها لررد جورج مندوب انكلترا
السامى وسر جوفرى ارشراكم السودان العام واسماعيل
سرى باشا وزير الأشغال بمصر في حفلة القدر . واضطرت انا
لنقل خطاب حاكم السودان إلى العربية أثناء سفر القطار
لأنه لم يكن قد ترجم . فلما انتهت جعل مكاتب التيمس
يسألنى رأيي فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها
محبذ .

وفمت إلى مرقدي قبيل منتصف الليل فلما أيقظنا
الخادم لتناول شاي الصباح كان النور قد انتشر في الأرجاء وتبدت

من الجانبين سهول غامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنار قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئا الى مكوار على مقربة من الخزان والى جانب المكان الذى تقام فيه الحفلة الرسمية .

ماذا ارى ؟ !!! ... ما هذه الالوف المؤلفة من خلق الله اهل السودان ؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو وما هذا العيد الذى لبس فيه أولئك السود الابيض الجديد ؟ وما هذه الاعلام المصرية والبريطانية يلعب بها نسيم الصباح العليل ؟ ما اظن اكبر مدن اية دولة من دول الحلفاء كنت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى اوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟ .. افحق ان أولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الحذل والطرب يسعدون برؤية المذ ينزل فى ترعة الجزيرة ؟ ام انهم حشروا اليه كما حشر الابرغرات والهافون فى الخرطوم له كما يحشر الناس فى مصر زمرا للقياء كبير اولتحية امير .

قلت لاحد كبار الحكام فى حكومة السودان : انكم لاشد من حكومة مصر مهارة فى حشد الناس وحشرهم وابرع تمثيلا لما تريدون ان يكون احساسهم وشعورهم قال وعلى ثغره ابتسامة جمعت الى التهميم الانتصار : لكننا لا نحشرهم الا للمناسبة عظيمة كهذه المناسبة . اما فى مصر فما اكثر ما يحشرون .

وقف القطار اذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى يساره . وكان خزان ترعه الجزيرة امامه ، وقد امتدت عليه وعلى الخزان كله قضب السكة الحديد التى ينتظر ان سد بعد ذلك الى كسلا . وكان مفررا ان يقوم القطار بنا فينحطى الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلومترات . لكنه كان يقوم بعد انتهاء الحفلة . لذلك فضلت ان اسير ولو الى منتصف الخزان واجلا كى احيط بشئ من مره خبرا . وأول ما توسطت خزان

ترعة الجزيرة رايت هذه الجموع التي ترى في الصورة على شاطئ
السرعة الايمن والايسر وقد اعلى عدد كبير منها تلك الاكمة
الظاهرة . فما كنت ترى الاملابس بيضاء ووجوها سودانية
واقفة تحت الشمس في صمت وسكون كأنما انشقت ارض الاكمة
عنها بعد ان كانت حبلى بها فمعت خلقا جديدا .

وحظيت ترعة الجزيرة بكون جسر الخزان ومعب في سرى
على الجسر في امداده عند السطى الذى المنسل الارض .
واعرض خزان سرعة بحر مياه من ونمايه امار .
الحبس بعدا فوق ارض صلبة ملى اربع مائة وسبعة ولاثين
مراية بسد مدك وفي خزان احباطى عرضه ماء
وخمسون مترا . بجى بعضا ما خزان الميس الارض نفسه
وترويه سماء مرسية ام رلتحق به خزان احباطى
كالحجر الاول في عرضه . وسد احسر بعد ذلك فوق
الارض بسلكه منه بعد ثلاثين مترا اخرى .
صحيح . عدد الانعقاد خمسة . كسار مترا وخمسة وعشرين
مترا .

الى ذلك حين بخلطك . سر من فوق سرعة الجزيرة الى جده
شامى . سل الارض سرى يرى خزان سدر حجر الماء فيه
ذلك الحسر الذى بسره عليه فجعل منه بحيرة واسعة من
يحيط بها حوانبها نظر الرى . وكان الماء يومئذ رقرقره العقيق
وررره . السماء وكان الجو من راسافا . فلما ابعدت من
ضجة الوف من حشروا الى شاطئ السرعة وبلغت من الحسر
فوق مجرى النيل الازرق ومبت على نسمات الصباح الرقيق
ارسلت بناظرى استطلع ثيئامن خبر هذه البحيرة المتسعة
الى يمنى . فلما عجزت عن الاستطلاع رددت الطرف يسرة
فاذا برعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرفع الماء فيها ، واذا
النيل الازرق قيما وراء الخزان محصور في ستمائة متر بينما
تتهادى مياه الخزان في ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين مترا واذا
الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق

ياخذ بالنظر فعلا ويدعو الى شىء غير قليل من التفكير في هذا العمل الهندسى العظيم وآثاره في السودان وما قد يكون له من رد فعل على المساهم اللازمة لمصر

في منتصف الخزان غرفة عنده لوحان من نحاس نقش على واحدتهما تاريخ بناء الخزان وعلى الاخرى اسماء حكام السودان اساء بانه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء . وبين هذه الفروع رفع العلم المصرى

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة يستريح عندها المندوب السامى الذين جاء مع صاحب المندوبين وسائر المندوبين المقيم « عما يريد ان يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء الفخيم . وقد لقينى المندوب والحاكم العام واصحابهما حين عودتى راجعا الى مكان الاحنة الـ . وكان حتما ان اسرع بالعودة وانا را حبل وهم مستعجلون السيارات . وعند مقادير كبيرين من المصورين والصحف من مصر ومن العودة كذلك . واما بلغت الى حب كال العطار ورافة احدون بمنه حب اقمب « تلة للمدعوين ترفرف من حوائط الاعلام المصرية . وفي ظلها قامت صفوف مدرجة من المناضيد الخشبية الطويلة ليجلس المدعوون عليها .

امام هذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنصة بوق لتضخيم الصوت حتى تسمعه هذه الالوف المؤلفة جميعا . كما قامت فوق المنصة ديد في شكل « امتحمت » متصلة كهربائيا بفتحات الخزان حتى اذا ادارها المندوب السامى تفرج باب الخزان وجرى الماء منه في ترعة الجزيرة .

وفي الساعة العاشرة عاد المندوب السامى والحاكم العام وقرنتاهما وجلسوا الى المنصة وجلس معهم معالى اسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية في ذلك الحين . وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضى النيل الازرق الذى كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية

العودة إلى الخرطوم عند محالج قطن السودان في بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التي دعينا لشهوها وان
لنا ان نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء وننزل منه عند بركات
نشهد احد وابورات الخليج بها ونستمع الى الخطاب الثاني الذي
يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامي
واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية اقرب
الى ان تكون مظاهرات منها الى أى شىء آخر وكان خطاب لورد
لويد يجب ان يناول الحديث عن زراعة اراضى الجزيرة والفطن
النمى بها والنتائج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان
من قبل أبدا ، فقد وجب أن يستقل فخامته وقريته سيارات
يصحبهم فيها رجال حكومة السودان ويطوفون واياهم بعض
مزارع القطن لكي يكون حديث المندوب السامي عن علم او عما
يشبه العلم في نظر المستمعين . لذلك استقل هو ومن كان في
صحبه سياراتهم على ان يمرؤا بالمزارع واستغلنا نحن القطار .
والى الملتقى ببركات

ها نحن الان تشهد اعياننا ضيوف الحاكم العام بحفلة افتتاح
الخزان مجتمعين في عربات القطار . لقد جاءوا من مصر
وانكلترا زمرا ولم ير بعضهم بعضا في اجتماع واحد . ولقد
دعى كثير من اعيان السودان لشهود الحفلة ممن رأينا في يوم
عيد الملك وممن لم نر في ذلك اليوم . وقد قمنا من الخرطوم
في المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بغنادقها ، وشغلنا عند
سير القطار بالهايفين والمزغردات وذهب اكثرنا بعد ذلك الى

مخدعه ، ثم تناول الاكثرون طعام الافطار في مخادعهم كذلك . لهذا لم يسن لاحد ان يرى جميع زملائه في الضيافة الا حين حفلة مكوار . لكن الذين اجتمعوا للشهود الحفلة من موظفين وغير موظفين جعل الغرفة بين الصوف وغيرهم عسيرا . فلما حرك الفطار وباعد بنينا وبين الاثوف الى حسدب لتيسر للمحفظي له يسر الا نحن الصوف وسعر كن واحد مابما سنه رين صاحبه من صبه الضيافة . فكتب برى كـ ١ من الابداسات سادس ومن التحات تنهادي

ثم كانت فرصة اخرى ازبادد البعارف ملك فرسه سافر طعام اعداء في عربة الاكر . فقد هرع الناس الى تـ ١ عند سمرافتر بدت في . واستبقوا ينخر كل منهم مكر سائجا . ومع عن حرمه السودن سجدد الامكن في ملك اعربة له حسب سجدد معدد النوم . فكان المساق صاحب الاحسر . وكان جمعه الاوربيين كلينز او غيرا كلينز اسبق منانحن الشرقيين الذين يرون في الاسراع الى الطعام شيئا من التنافي مع الكرامة لما قديكون فيه من دلالة على الشرف . لذلك الفينا نصف العربة الاول امنلا وبقي نصفها الناني خاليا او يكاد . فتخيرنا في هذا القسم الثاني اماكننا وجعلنا ننتظر من يجلس واينا فيه بينا كان الخدم يقدمون الطعام لاهل القسم الاول . اين جيراننا وزملاؤنا في الطعام .؟ اولئك اعيان السودان . وهم اشد تباطؤا الى الطعام وتظاهرا بعدم الاكثراث به لنفس السبب الذي جعلنا نتاخر عن زملائنا الاوربيين . لكن . . هاهم بدأوا يفدون واحدا بعد واحد . وهذا جانب الغرفة يكاد يمتلىء . . . لكن . . . اين السير السيد على الميرغنى باشا ! . ابعثوا في طلبه . . احفظوا له مكانه . . . وذهب كبير من موظفي حكومة السودان يبحث عنه ثم جاء واياه على مهل فاجلسه على المائدة المقابلة لمائدتنا

واشار جليسى الى احد اعيان السودان وسألني ان كنت اعرفه ، ثم اخبرني انه انعم عليه بلقب «سير» يوم عيد الملك . وهو رجن طويل

القائمة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشسدة . قال جليسى :

- « قد يدهشك ان تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هذا الرجل باللقب العظيم الذى انعمت عليه به والذى لم تنعم به فى مصر الا على رؤساء الوزارات . لكنك تزول دهشتك اذا علمت ان فى امرة هذا الرجل الفى رجل يتحركون باشعارته ويديتون لطاعته . والانعام عليه يفيد ولاءه للحكومة وللتنج البريطانى ويقيده بهذا الولاء فعلا . واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئا قد كفل لها ولاء الفى رجل كلهم عناية شدادلا يعصون هذا الرجل ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكنما شعر جماعه من اعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فنظروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتأهب . ثم خاطبنا احدهم بلهجة عسر على ان افهمها . فرد عليه جليسى بعبارة غليظة . واليت ان لاناحدث عن هؤلاء الناس اناء الطعام بشيء حتى لا اثير ما يدفعهم الى التأهب من جديد . بل لقد حاولت ان لا انظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة ان يحسوا انها نظرة نقد .

رغم هذا الحذر والباه الذى دفعت به الى نفوس اعيان السودان احدثت السياسة كسلاحي في وجوعهم من علائم اسقامهم وانهم المروءة مذكرونا باجدادنا المصريين اذ لم يكونوا قد انزروا بعد بالمدنية الغربية ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما ترى اليوم عند كثيرين من حرص على المسادة وانعماس في اسباب تحصيلها . بل كنت ترى اكثر من هذا . كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشيء من الضيق لهذه التكاليف الرسمية . هم يفتشون بما منطوبه من صلة بينهم وبين الحاكم . لكنها في نفس الوقت لا تتفق وطباعهم الصريحة التى لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم في ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من اكارم المصريين توفى منذ زمن طويل كان يذهب الى الشريفة لمقابلة الخديو مع سائر الاعيان في كل عيد من الاعياد .

وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان . فكان يذهب في ملابسه العادية والتي تنم عن بساطته وكرمه ووجهه الانسانية، والتي تكون من رعبوط وحرام . الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدى الملابس الرسمية مدى الساعة التي يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها في حضرة الامير . فاذا تمت هذه المهمة التي كان يفتبط بها اسرع الى حانوته فالتقى ملابسه الرسمية ولبس زعبوطه وحرامه وعاد كما كان شيخ العرب الكريم السخى اليد الذي يريد ان لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه في لباس بسيط كلباسه .

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالي الرابعة بعد الظهر . ثم سار بعد ذلك على مهل الى وابور الخليج . ماهذه الجموع الحاشدة التي تزيد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد جذبت من في السودان جميعا لهذا اليوم . فهؤلاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل . وهؤلاء لبسوا البياض . فلعله لهم او لعل الحكومة تتركه منحة منها ان كانت هي التي خلعنه عليهم

نزلنا من القطار في ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الالوف الحاشدة وفصل بيننا وبينها فضاء متسع وضعت في ركن من اركانه اكياس القطن التي اتى بها للمطج ، وقام وابور الخليج وبه ثمانون دولابا في وسط الساحة ، وهذا الوابور واحد من اربعة يشتغل في كل منها مائتان وخمسون عاملا . وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة البديعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج . اليس عجبا ان تمتد يد الحضارة لتقيم في هذه النواحي البادية هذه الآلات الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على مون البحار قطعها وهذه هي تدور الان مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملا كانوا في غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهني . لكن انكلترا يجب ان تتغذى بالقطن لينال عمالها واشرافها اكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك ان يخرج اهل السودان وغير اهل السودان على ما القوا منذ مئات السنين وان

ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود اول قيامهم به .
فاذا الفوه ، والقوا ما يدرء عليهم من ربح وما يوفره لهم في الحياة
من نعم استراذوا منه ما طافوا الاستراذه . ثم براهم بعد ذلك
ولهم في الحياة ميل ما لعمل الانكسر واستراذهم من مطاعم .
يومئذ لا يكون مفر من احد من قضاها . وذلك سبب النظام
الفردى في الاقتصاد . ذلك انهم البدع الله على ان يعنى كل
دايه . سواء كتب فردا او جمعا او امه . بمصالحها . وان سافس
غيره في السعى للحصول على مصلحة في حين ظروف ممكنة .
فهو يشبه دائما الى استمرارية اساسه في سبيل التقدم .
وهو من غير شك اعترافه ان فقهه الى بعض . من غير شعور من
التقدم . انى هذه الله لاسانه السمتة عنه بقاها
الجمع حين اجمع وحين كثر او هبته او امه يتكرر منها
هذا الجمع

درنا في ارجاء و زر الخليفة حرجا من اب غير السدى
دخلت منه فدا امم هذا الباب لاني مضطه كره اقمعت عنها
مفقه بحجها مده عليه . مضطه نصوب ومن حياها معقد اعدت
ليجلس عليها المندوب السامى لشرطى وصحبه . ولتفرم بافقه
حديه . يوه فيه تمت الحضارة الى قامت بوار هانا في اسودان
على هذه الاوف من السودانيين الذين حمدوا له . والذين لا عرف
أحدهم من الانكسرية حرفا ولا واحد في كل مائتين منهم ان يرك
- ان هو استطاع ان يسمع - فامى برحمه هذا الخطاب الى العربيه
وانعت لتصحافه منضد وصعب عندها افلام الرصاص
و (لوكوب) من ورق صفى كما مهدت للصحة من قبل
وسبل العمل لتزراع في ارسال رسائلهم البرقيه الى انحاء العالم
المختلعه يذيعون فيها اخبار هذا الاحتفال البريطانى في مناطق حط
الاستواء ، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت به بريطانيا خدمة
للحضارة في العالم ، وان كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيد
بريطانيا نفسها .
وبعد الساعة الرابعة بقليل أقبل لورد لويد ومن معه عائدین



ولم يكن ذلك الامر يكتفى بشعر بما يشعر به اهل العالم من
قواعد السلوك في حركاتهم وملابسهم

من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فأحاطوا بالنضدة تحت المظلة ،
والقى لورد لويد خطابا هذه ترجمته :

كان لى هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتياب بافتتاح خزان
سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقى السودان الاقتصادى
ومنذ الاحتفال مرونا بقسم من الاراضى التى أخصبها الخزان
ولاحظناها . ومن دواعى سرورى أن تنجح لى الان فرصة مقابلة من
نقع عليهم التبعة الخطيرة . تبعة استغلال ما أنشئ الخزان له .

لايسع الزائر الذى يرى ماتم اليوم الا أن يقدر ما أنفق فى هذا
المشروع من جهد وروية واقدام . فمنذ سنة ١٨٩٩ عرف السير
وليم جارستين الذى عمل كثيرا لاهالى مصر والسودان مكنونات
سهل الجزيرة . ومن ذلك الحين ظلت المسألة موضع البحث
الدقيق . وأستطيع شخصا أن أقدر هذا العمل قدره بعد ما كان
من حظى فى أثناء عملى فى الهند أن أفتتح وأشهد أكثر من واحد
من مشروعات الرى الكبرى التى قصد بها هناك كما قصد بها
هنا الى تحسين حظ المزارعين وزيادة ثروة البلاد .

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه فى أثناء الحرب والصعوبات
الهندسية العظيمة التى وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه
اليوم . والمسألة الان هى كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد
التي أسبغها على أهالى السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال .
والجواب لا ريب عندى أن النجاح رهن باستمرار ونمو التعاون الذى
قام المشروع على اساسه . فقد اكتتب الجمهور البريطانى بمالايغل
من أحد عشر مليونا وربع مليون من الجنيهات ، وبررت الشركة
من جانبها هذه الثقة بها بعباشرة الاعمال الزراعية وحفر الترغ
الصغرى ببعيد نظر ومقدرة يقصرونهما كل ثناء ، وألقت دوسا
مدهشا بتدريب عدد عظيم من الزراع عند الطلبات . وأهم
الاشياء أن علاقاتها بالزراع عموما كانت علاقات عطف ومودة ولا
سبيل للنجاح الصحيح ما لم يقيم على قاعدة هذا العطف
وبعد أن أثنى على المستر انستين قال :

لقد تغيرت حالة السودان كلها فى السبع والعشرين سنة

الآخرة . فكانت البلاد قبل إعادة فتحها تزدد كل سنة انحطاطا بدلا من أن تقدم ، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التي تلازم عدم الأمنينة على النفس والمال تهلك الحراث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى أراض غامرة واشتد الظلم والقسوة . ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجاً حصبة ، والضغط والقسوة يحل محلها العدل والسلام . وتشهد الإحصاءات الرسمية بزيادة عدد السكان منذ ذلك الى ثلاثة أضعافه ، واصبحت الثروة لاتقضى مضجع صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد . والفنى والفقير يستطيعان السير آمنين حيث يشاءان ، وللقانون والنظام الحكم فى كل مكان . وفى السنة الاولى لاتتم الحراة زرع بمائون الف فدقنا ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر ان يحل ثمانين الف رطب هذا العام ، وذلك كميل بعدم جنابة غرض مشروع الجزيرة الاو . بررع القطن لبيعه ، على حاجات الشعب لمؤنثته كفالة تطمئن من يذكر قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما حاق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ . ونقطة هامة تحقق التنويه هى كفالة حقوق الامالى بقانون سنة ١٩٢١ . فهناك شركة بين الزراع والحكومة والشركة اشترك وثيق فى المصالح يجسر كل طرف يسعى لانتاج احسن محصول واصحه وختم جنبه الخطاب بتهنئة موظفى المديرات وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالى السودان وتجارة جميع الامم .

وكان يلوح على لورد لويد أثناء القائه هذا الخطاب انه متعب ومجذود . فلم يكن فى مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة . وله العذر بعد هذا المجهود المضنى الذى قام به هو وقرينته والذى لا يعتبر شبيها الى جانبه ما قاما به من مصافحة اكثر من ثمانمائة مدعو فى حفلة « يوم المائدة » عملا لصلحة الامبراطورية العظيمة وانصرفنا عائدين الى القطر ، وخفف عن هذه الالوف التي

حشدت نطاق النظام الحديدي الذي اوقفها في اماكنها صفوفا
كما توقف الجند . فاستفاد من ذلك بعض افرادها . كانوا
يحدثوننا ايام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن والزمهم
بناء تدمر بالصفاح والعمد ، وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد
جلوسه عندهم كافيا لدابهم على العمل والجد فيه . ومات سليمان
في جلوسه واسفل الموت عنبيه ومع ذلك ظل الجن في دابهم خفية
ان يكون اطباى السى اجعانه لسنة اخذته فاذا شذوا عن امره
انزل بهم الام العقاب . فلما ما حمان سليمان وهوى الى
الارض وافتر الجن موته اغتصروا فرجس انشد فرح يعود الحرية
الىهم وجعلوا يحسبون حبسنا ما ساءوا . كان ذلك سببا
جذوا الذين حقف نطاق النظام عليه . انطوا يعبدون ملء
سفنهم له . وا هذا الفضاء الذى كان يفصل بيننا وبينهم
حتى صاروا نقبة في سبل وصولنا الى القطار . فلما وصلنا
اليه بعد جهد انصاحم احاطوا به من كل جانب حتى تعذر
الاعتود اليه . واضطرونا للاجاء الى القائم بامر النظام في هذا
الكار الذى يولاه هرج اى هرج . وعجز حماه النظام عن معاونا
فسفقا لانفسنا الطرق بر هذه الجموع المائجة السى ظل لديها
من الاحرام لنا ما توجهه عليها السرقة المسامحة من اكرام
الضيف وحماية القرب

فيم هذا الهرج والمرج ؟! ما هذا العجيج الذى تثيره هذه
الخلايق المندفعة صوب القطار في حماسة وجيسان ؟! . . صه ! ان
لها من وراء اندفاعها لغرض ساميا عظيما . انها تلمس بركات
صاحب البركات السيد على الميرغنى .

نعم ! فقد اقبل السيد الى عربته بالقطار فطار في اثره مئات
من السودانيين لا يقترب اليه منهم احد ولكنهم يتبركون بمواطىء
قدمه ويطلبون اليه في خشوع وابتهاال كلمة الرضى والغفران .
فلما سعدنا العربية راينهم احاطوا بها وجعلوا يملسون بايديهم عليها
يتملون من بركاتها ما يتملى به اولئك الذين يزورون الاولياء
الصالحين في مقابرهم . ولعلك ان تحدثت الى

احدهم فيما يفعل قال لك ان عربة القطار التي يحملها ولي صالح كالسيد المرغنى اكثر حياة وبركة من ضريح به رفات ولي كان من الصالحين . ولعله يقول لك ذلك في ايمان ناسيا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، وانهم بعد موتهم احياء عند ربهم يرزقون .

اشرت في فصل « عيد الملك » الى ايمان اعيان السودان بالسيد على . هذا الايمان المرتسم على وجوههم البادى في نظراتهم المتجلى في كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يده وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . فاما ايمان عامة اهل السودان بالسيد فيفوق ذلك اضعافا مضاعفة ويتجلى في صورة من التعبد لا تبعد كثيرا عن العبادة . رأيت بعينى جماعة منهم تقبل سلم عربة السكة الحديد لان قدم السيد وطئتها . وكنت اسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة مبتهلا اليه ان يكون واسطة له عند الله في المغفرة . ولو ان السيد امرهم في سبيل ذلك ما امرهم لما عصوا له امر ولا خالفوا له كلمة . ولو انهم ظفروا من فضل رداء السيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل ان يكون له او أن يلمسه ان لم يستطع امتلاكه .

انظر ! هذا جن سليمان فك عقاله . فهذه الالوف الحاشدة تزحف نحو القطار زحفا . وهذه كلها تصطف على مقربة منه صفا صفا . وهؤلاء افراد اشد من غيرهم حماسة في ايمانهم يجاهدون ليشقوا لانفسهم الى عربة السيد طريقا . ولا متقد لنا من هجومهم علينا الا ايمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولا مفر لاذنانا من سماع عجيج دعواتهم الى ان ينطلق القطار فيخلفهم وراءه .

انطلق القطار ، فارتفعت الاصوات بالتفليل والتكبير . افحست اهم جميعا وقفوا عند نهيلتهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعه منهم يسابقون القطار محاذين عربة السيد وسيقاتهم

الدقيقة واعصابهم المثينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك
انقطعت الضجة واخذ بالعادين الجهد وأبدت الى صاحبى الموظف
الكبير بحكومة السودان عجبى لهذا الايمان . قال لا تعجب .
فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافساح خط كسلا ومعنا
السيد . وعلم اهل ذلك الاقليم بالامر فأحاطوا بالقطار اول
دخوله افيهمهم لا يحسبون ان يوردعهم عربانه الحنف اساء
سيره ، بل تعلقوا به منساجين مهللين يلتسمون من السيد
دعاءه ويركبونه مما اضطر سائق القطار للسير الهوليا مخافة ان
يدهب بهذه الارواح الصارحة ، ودخلنا لذلك متأخرين عدة
ساعات عن الموعد لمصروب لدخول قطار واقامة الاحتفال

ونال اخر : ولو علمت ياسيدى هم ما يزالون انما دخلوا الى داره
باخرطوم دخلوا الى البهو الذى هو فيه زحفا على
ايديهم وسيفاتهم وعيونهم دس في الارض لا ترتفع له منهم نظره
لعدرت مكنه السيد العصى وسلطانه الدينى . ثم لو علمت
مع دلاناه لاسخر هذا السلطان الدينى لدعوة سياسيه ولا يطمع
فى سىء الا ان بسود السلام بلاده لا كبرت من قدره فوق ما كبرت
ولعنبت اليه اوبى من الله حكمه وقصد عظيمه

وامعن القصر فى الظللة وعددا بعد ساول طعام العسا الى
مخادعنا . وانا لنعد عدتنا للنوم اذ بلغنا واد مدنى . فصعد الى
القطار جماعه من السنان المصرى الذين مابرون مقيمين بالسود
وقصدوا الى مخدعى ، وبعد تبادل اسحبه سألونى ان انزل معهم الى
رصيف المحطة لتكون بعيدين عن الانظار والاسماع . وهذا
بعض مظاهر الخذر الذى اشترت اليه من قبل . فمنذ قتل السيرلى
ستاك فى القاهرة ورتبت انكلترا على قتله اخراج الجيش المصرى
من السودان قامت حكومة السودان باحاطه المصريين المقيمين
فى ربوعه برقابة شديدة مخافة ان يثيروا فى السودان روح التمرد
والعصيان . على ان هؤلاء الشبان الذين احاطو بى فى واد مدنى
كثيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا اشد ميلا
لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة . ولعل اهم

هذه الاسباب فى نظرهم ما اتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات ادت الى عدم رضى السودانين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصرى فى السودان ولست ادرى مبلغ ما رويوا من الصحة . الا انهم كانوا منهمولاً هؤلاء الضباط بأنهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يغصون النهار وطرفها من الليل فى استباحتها ، سواء منها الطبيعى واساد وسوا . منها المطعوم والسروب . وقد يكون لبعض هذه الهمم قوام واحكومة المصرية لم يكن من يكون نابيا عنها فى السودان ربح له مقام ائورس وسيطه على المصريين الذين فى السودان على الاقل

كذلك كان من سكرى هؤلاء السدان المصريين الذين تحدثوا الى فى واد مدي ان بعض السودانيين الموجودين بدمتر لائون من عطف المصريين عليهم ما لم يفتح السنين بساء مردت فى مختلف جراب السودان ويدل دلالة حقيقته على عراطف الاخره الصادقة من اجراء هذا السعب متصل بأوى ا . وابله وامسها والميم على صفاء الليل السدى سبيع عبه الحده وعمها

وبركت هؤلاء الشبان الذين ودعوني بحفاوه سكرهم وامسهم اليوم عليها وعدت الى مخدعى فى القطار . ثم عاد امطر الى انطلاقه فاويننا الى مضاجعنا وبقينا فيها نياما حتى استيقظنا فى الصباح على مقربه من الخرطوم . فاخذنا افطارنا ونهينا لعودة الى فنادقنا ناوى الليلين الباقيين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار ومشروع رى الجزيرة

«خزان سنار» أصبح الآن الاسم الرسمي لهذا الخزان القائم على النيل الأزرق تحجز مياهه لرى أراضى الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق ، ولكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة الا فى حفلة افتتاحه . أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذى بنى عنده كما سمي خزان اصوان باسم اصوان . ويحكون عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية طريفة أقصاها هنا من غير أن أكفل صحتها . ذلك أن مكوار عائلة كبيرة فى هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة وأطلقت اسمها على البلد الذى استقرت به . ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب أحد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر . ولما سئل عما قدم هو وأهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال : « يكفى اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهندسى العظيم الذى يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا » فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من العربية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم خلالها

وخزان سنار واحد من أعمال الرى الكبرى التى يراد بإقامتها ضبط مياه النيل . فما يزال القسم الأكبر منها يضيع فى البحر الأبيض المتوسط مع امكان الاستغناء به لرى ملايين الافدنة القريبة من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها ولم يشيد خزان سنار الا بعد أن قام كومتان المصرية والسودانية

بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الري الأخرى وبعد ما أجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح أرض الجزيرة لزراعة القطن ذى التيلة الطويلة من نوع قطن السيكلاريدس المصرى . فلما نجحت هذه التجارب أقدمت حكومة السودان على إنشاء الخزان الذى حضرنا حفلة افتتاحه

وكان السر ولسم جارسيس مستشار وزارة الاسغال المصرية أول من لفت النظر لامكان رى سهل الجزيرة صاعبا فى سنة ١٨٩٩ ، وأنده فى تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ للورد كرومر فحصل بريطانيا الخمرال فى مصر . والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعة القطن فى مساحات واسعة فى أرض الجزيرة لا ترد على حبال لدى النظر اليه الاكتفى بعن الرجاء . ذلك أن زراعة القطن لم تكن عرمة عن تاريخ السودان . فقد روى المسويونسى الذى راسم مع البشير زائر بوس دى برفان سنة ١٦٩٩ أنه وجد بها مائة ألف من السكان رائجة بحارثهم فى بصدور القطن الى حد أن اعف السلطان الاررق - وذلك هو الملك الذى كان يطلق على امر هذه المظلة الواقعة على النيل الأزرق - مع ملك الحبشة على ابقاء ضابط بالنيابة عنه فى شلجا عند حدود الحبشة لتحصيل العوائد على القطن الصادر واقتسامها شطرين يأخذ كل امير منهما شطرا . كذلك روى بركار الذى زاد شندى فى سنة ١٨١٤ ان أهم صادرات سنار كان الدمور المصنوع من القطن ، كما روى أن مصانع القطن فى سنار وبجرمى هى التى كانت تمون القسم الأكبر من افريقيا الشمالية بالملابس . على ان هذه الصناعة انحطت فى السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى فى أوروبا ومازاحتها الصناعة اليدوية فى الاسواق مزاحمة لم تقو هذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلا . لذلك انقلب السودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة . فلما استعادت الجنود المصرية السودان بعد ثورة المهدي كانت زراعة القطن

وصناعته قد تدهورت فيه . واصبحت ضئيلة أشد الضالة
ولما قدم السرجارستن تقريره عن امكان ضبط مياه النيل
الازرق لرى الجزيرة بدأت حكومة السودان في ديسمبر سنة ١٩٠٤
بمساحة اراضي هذا السهل المتراعى الاطراف التى انشئت
لهذه المساحة قائمة بعملها حتى اتمت القسم الاعظم منه في سنة
١٩١٢ . كذلك مدت الحكومة خطا حديديا ما بين الخرطوم
وسنار بدأت العمل فيه في سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار
في سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به ارض الجزيرة من جنوبها حتى
وصل الى كوستى على شاطئ النيل والايض اتجه الى بلدة
الايض . وفي الاثناء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن
فاقامت في سنة ١٩١١ محطة طلبات عند بلدة الطيبة على
الشاطئ الغربى للنيل الازرق وحفرت الترع التى تاخذ مياهها
من محطة الطلبات هذه لتغذى ثلاثة آلاف فدان زيدت بعد ذلك
الى خمسة آلاف . وعهدت حكومة السودان فى القيام بهذه
التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابة من سابقه
القيام بتجارب زراعة القطن بيزداب فى شمال الخرطوم .
وبدا نجاح تجربة الطيبة نجاحا باهرا فى سنة ١٩١٣ . فدعا هذا
النجاح الى ضرورة التفكير فى اصلاح طرق الاستغلال . وكان
لورد كينسر " منذ قنصل بريفا بيا الجنرال فى مصر .
فوسط الامر واسد الامر على ان يكون حاكم السودان مسئوله
عن السرعة بحرى فى كل ناحية يزرع القطن فيها وان تكون نقابة
زراعة السودان مسئوله عن السرعة الصغرى وعن ادارة المشروع
كله وامداد المزارعين بالاموال اللازمة لهم وان يقوم المزارعون
بالعمل فى الاراضى وان يورع محصول القطن الناتج من الزراعة
بنسبة خمس وثلاثين فى المائة منه للحكومة وخمس وعشرين فى
المائة للشركة والاربعون فى المائة الباقية تكون للمزارع كما تكون
له سائر الحاصلات التى تنتجها الارض

فى هذه السنة عينها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى اثر زيارة لورد
كينسر لسودان مع اثنين فى النظرى من رجال الحكومة المصرية

وبعد ان رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذى اريد اصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لاقامة خزان سنار ونجاح مشروع رى الجزيرة ، فى هذه السنة اقر البرلمان البريطانى الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض ، وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان فى سنة ١٩١٤ . لكنها اوقفت عندما شيت نيران الحرب الكبرى .

وقد رفضت الحكومة المصرية اذ ذاك ضمان هذا القرض لانها رأت الامل ضعيفا فى استرداد ما دفعته للسودان سدادا عاجزا ميزانيته بما بلغ احد عشر مايونا من الجنيهات ، ولان السياسة الانكليزية كان ظاهرا ميلها الى استثثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال ماليا عنها وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر ان الاموال التى دفعتها مصر للسودان فى السنوات المتعاقبة كانت ملايين عدة . وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهى بأن تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فاندتها اخر الامر على انكلترا وحدها . غير ان طائفة من المصريين كان لهم رأي غير هذا الراي . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هندسى او مالى يربط مصر بالسودان يقوى حجة مصر فى السودان ويكون نقطة ارتكاز لاولوية مصر فى ان تمسك بيدها تصريف مياه النيل ويذهبون الى اكثر من هذا اذ يقوون ان حكومة السودان كانت على استعداد لان يشترك المصريون ملاكا ومزارعين فى استغلال سهل الجزيرة ولكنهم اظهروا اعراضا تاما عن هذا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرغبة كل الرغبة عن ان يكون لها فى استغلال السودان يد او رأي .

وربما كان هذا الذى يقال صحيحا . وربما كان مركز مصر فى السودان غير ما هو اليوم وان الحكومة المصرية ضمنت قرض الجزيرة الاول الذى زيد بعد انتهاء الحرب الاولى من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع اسعار الخامات والاجور اللازمة لانمام بناء الخزان . وربما

كان من الخير حقا لو أن المصريين ذهبوا لاستغلال هذا السهل الترامى الاطراف وحققوا بذلك تحقيقا فعليا حجتهم بان السودان هو المهجر الطبيعى لهم فلا سبيل لفصله عنهم . لكن هذا الذى تبدو صحته اليوم لم يكن واضحا مثل هذا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلى المطلق فى مصر ، وحين كان المصريون فى شدة حذرهم من سلطانها فى السودان يخافون ان يتقدموا نحوه خطوة . لذلك كان لحكومته يومئذ ، اولا اخرى كان للجمعية التشريعية التى رفضت ضمان الحكومة المصرية فرض الجزية . العذر كل العذر عن هذا القرار

نحسب مصر اذن عن الانسحاب فى استغلال سهل حرر ، و قد تم انكلترا بسبب جمع لورد كسمر على الافراد بهذا الاستغلال واصر البرلمان البريطانى ضمان الحكومة الانكليزية فرض الجزية فسدى ، بالاعمال المنهجية لاساء حراس سنار . ثم استمررت الحرب فاونفقت هذه الاعمال . لكن ايقافها لم يمنع من الاستمرار فى قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصا بعد ما تقرروا أن تكون مساحة الاراضى التى يروىها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطنا فى كل عام . فانشأت النقابة المذكورة فى اوائل سنة ١٩١٤ محطة طلبات جديدة فى بركات لرى ستة آلاف فدان . ثم انشأت بعد ذلك محطة اخرى لرى ١٩٥٠٠ فدان فى ناحية الحوش بدات استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعة فى وادى النور لرى ثلاثين الف فدان بدات استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ وكان هذا الاستغلال على قاعدة زراعة الثلث قطنا والثلث ذرة ورويه ورك لسب الباقى بغير ررع . أى على قاعدة الدورة السنوية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلبات هذه مجرد القيام بتجارب زراعة القطن . فقد كانت تجربته الطيبة كافية منذ سنة ١٩١٢ . لكن زراعة القطن كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدي بزمان غير قليل . والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشتراك فى

الاستغلال . وقد عطلت الحرب استمرار القيام بأعمال انشاء
الخزان . فرات الحكومة ورات النقاية الاستفادة من هذا الظرف
لتدريب اكبر عدد ممكن من المفتشين الانكليز ومن أهالى
السودان ومن الوافدين عليه من النيجيريا وغير النيجير بأعلى اعيان
بهذه الزراعة ومراقبتها حتى ادايم بقاء الخزان وكانت السرعة
والعزوة في استلامه الف فدان التى اعدت في المشروع قد تم
استمرارها امكن زرع ثلثها أو ما يقرب من الثلث فطنا دفعة
واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز المفتشين والاهالى المزارعين الذين
تدربوا على رعيه . وقد ابيت الزمن بعد نظر الحكومة والنقاية
في هذا الشأن فامكن زراعة ثمانين الف فدان فطنا على اسر
نهام بقاء الحرر مساره في نساء سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦

اما هذه الثلاثمائة الف فدان التى تقرر منذ البداية أن يتكون
منها مشروع رى الجررة فمصدقى انساطى الغربى للري الازرق
مبداه عند قرية الحاج عبد الله على بعد سبعة وخمسين كيلومترا
الى شمالى مكوار حيث تقوم الخزان . (وقد نسي الناس في
السودان اسم قرية الحاج عبد الله واصبحت هذه القطعة معروفة
عند المهندسين باسم الكيلوسبعة وخمسين) . ثم تستمر في
امتدادها شمالا على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة
وثمانين كيلو مترا . ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب
بين اربعة عشر وخمسة وعشرين كيلو مترا . ويسير
وامامك هذه الابعاد ان تتصور هذه القطعة من السهل المطمئن
لاتقوم عليه ربوة من الربى ولا عقبية من العقبات محاذية النيل
الازرق المخصب ، وان تتصور الى جانب ذلك انها ليست الا
جزءا من عشرة أجزاء من تلك الاراضى التى يمكن رعيها
بالمشروعات والتى تبلغ ثلاثة ملايين فدان من خمسة ملايين
هى مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور اخيرا
ان هذه الثلاثمائة الف فدان تمررت سنة ١٩١٣ وهى
حكومة السودان ونقاية زراعة السودان تراها الآن غير كافية

بالحاجة الزراعية مع انها لم يبدأ بزورها الا عام ١٩٢٥ -
١٩٢٦

وهذه الثلاثمائة ألف فدان . كغيرها من اراضي سهل الجزيرة ، لم تكن ملكا لحكومة السودان وهى ليست الآن ملكا لها . بل هى فى ملك اهالى السودان الذين كانوا يزرعونها على المظرب حيويا جعلت الجزيرة - كما أسلفنا - مخزن حبوب السودان . وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لا ينتج ثمراته اذا بقيت هذه الاراضى تحت يد ملاكها . ورأت من ناحية اخرى انه لا بد لنجاح المشروع من ان تكون للاهالى مصلحة مادية فيه . فاستأجرت اراضى المشروع لمدة اربعين سنة بديار سنوى عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضى اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بتمن جنيه واحد للفدان . ولما كئت مساحة هذه الاراضى قد حددت تحديدا دقيقا بمعرفة الهيئة التى نوهنا من قبل بذكرها والتى اتمت عملها فى سنة ١٩١٢ ومجلت املاك الاهالى باسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لاتثير نزاعا من هذه النجبه

على ان هؤلاء الاهالى الذين استأجرت الحكومة اراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذا الايجار الذى يبدو تافها ضئيلا متى اسنقلب الارض بزراعة القطن مصلحة اخرى تجعلهم لا يتذمرون ولا يشعرون بالحيق وقع عليهم . وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة تراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصف لك كيف نظم لى الجزيرة .

اصبحت الثلاثمائة ألف فدان فى حيازة الحكومة التى استأجرتها . وهذه الثلاثمائة ألف فدان تحاذى ترعة الجزيرة حينا وتحيط بها حينا . وقد قسمت الحكومة والنقابة هذه المساحة الى تسع عشرة قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر ألف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعه . ومن الترع الرئيسية الآخذة من برسه لجزيرة وبين كل واحد وما

بعدها نحو ١٥٠٠ متر . ومن هذه الترع تسروى الارض عن طريق فتحات منتظمة ادق نظام
وقد رأت الحكومة ان قدرة المزارع في الاستغلال الصالح لا يمكن ان تعدو العمل في ثلاثين فدانا يزرع منها عشرة افدنة قطنا وعشرة ذرة ولوبية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة .
لذلك جعلت هذه الثلاثين فدانا وحدة ما يضع الرجل عليه يده في اراضي الجزيرة . وملاك الارض الاصليون يفضلون على من سواهم في الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فدانا من ارضه . ولكي لا يشعر كبار الملاك بانهم غبنوا في تاجيرهم اراضيهم للحكومة جعلت القاعدة ان يكون للمالك حق اقتراح الاسخاص الذين سينقلون سائر ما استأجرته الحكومة من ملكه . وهو غالب الاحيان يقترح من يتصلون به بصلة القرى . وما دامت تقارير المفتشين عن هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الارض التي يستقلونها

أشرنا الى ان محطات الطلبات هي التي قامت بالتجارب الاولى كما قامت بتدريب المزارعين على طرق الاستغلال وادواته ، والتي استمرت كذلك الى ان تم بناء الخزان في سنة ١٩٢٥ بعد ان بدأت الاعمال الاولى التمهيدية فيه في سنة ١٩١٣ ، واشرنا كذلك الى ان هذه الاعمال اوقفت على اثر اعلان الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ . فلما انتهت الحرب عاد المسيو السندريني الذي وكلت الحكومة اليه المشروع يباشر اعمال الانشاء . لكن ارتفاع الاسعار على اثر الحرب جعل المبالغ التي قدرت لانعام البناء غير كافية . على انه استمر في العمل لحساب الحكومة وياشر منه قسما غير قليل . وفي هذه الاثناء رأت حكومة السودان ان خطة الانشاء على هذه الصورة ، صورة الحساب الجارى « تبهظا بالنفقات » فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان الى ستة ملايين طرح اكمال بناء خزان سنار في المناقصة ورسا على محلات بيرسون واولاده بلندن فبدأوا العمل فيه منذ ابريل سنة ١٩٢١ . وهم الذين

وسبقنا الى وصف الخزان حين تمر فوقه . وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥٠ مترا مد عليها شريط سكة الحديد استعدادا لانشاء خط مكوار - كسلا . وثبت الآن مذكرة فنيه عن خزان سنار وضعها الفى بك الذى كان مدير اعمال تفتيش رى مصر بالخرطوم وتكرم باطلاعنا عليها كما تكرم بايفافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الاولياء . وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما راي ان وظيفته لا تسمح الافضاء به فتحات السد - معموله باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥٠٠٠ مرمكب فى المائنة والفتحات كالآتى :-

اولا - الفتحات السفلى وعددها ٨٠ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٤٠ و ٨ ومنسوب العتب ٢ و ٤٤ ويعمل عليها الموازنة ببوابات حديد تفتح بواسطة ونش بخارى .
ثانيا - الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهى ٢ فوق الفتحات السفلى وعرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة اخشاب غما افقى وترفع بهلب باليد

ثالثا - يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات الميئة عاليه ٢٠ فتحة عليا ومثلها فى الجهة الغربية - وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢ متر - وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ٤١٧ وتفتح وتقفل بواسطة اخشاب عم افقى
سعه خزان ومنزه ونقرعه :

اولا - اعلا منسوب تصل اليه المياه امام الخزان هو ٧ و ٤٢٠ ويحزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب
ثانيا - فى اول يوليه من كل سنه يكون منسوب امام الخزان على ٥ و ٤١٤ ويرتفع تدريجيا فى مدة خمسة عشر يوما الى ٢٠ و ٤١٧ لاعطاء مياه نرى القطن بالجزيرة وتحفظ المياه على هذا المنسوب الى اول نوفمبر .
ثالثا - من اول نوفمبر الى ديسمبر يرفع منسوب المياه

تدرجيا الى ٧ و ٤٢٠ ويبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير .
رابعا - من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتها من الماء
المخزون امام والتصرف الذى يكون فى النيل الازرق فى
الروصيرص أى تصرف النهر الطبيعى يمر خلف الخزان كما هو
لاحتياجات القطر المصرى لفاية أول يوليو حيث يتكرر الترتيب
المبين عليه .

ملحوظة - قد اتبع نظام خاص فى الحجز على الخزان منذ
زمن لعدم اخدمياه كثيرة فى يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر
المصرى وفى أول ديسمبر من هذا العام تم حفظ امام الخزان على
الدرجة المطلوبة وهى ٧ و ٤٢٠
ترعة الجزيرة :

اولا - فم الترعة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر
وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١٠ و ٤١١ - من هذه الفتحات
سبع مقفولة بالخرسانة المسلحة وتعمل الموازنة بواسطة بوابات
حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين .

ثانيا - الترعة عرض قاعها ٢٦ مترا وارتفاع المياه بها ٣٤٥ متر
وانحداره ٧ سنتى فى الكيلو وذلك كاف لرى المساحة الحالية وهى
٣٠٠٠٠ فدان ومسطح الترعة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام
ثالثا - أول قناطر حجز على الترعة عند كيلو ٥٧ ويتفرع امامها
خمس ترع ومصرف على النيل لتخفيف المياه بالترعة وعند هايدا
الرى بالجزيرة وكل الرى بالراحة

رابعا - ثانى قناطر حجز عند كيلو ٧٧ وامامها ثلاث ترع
ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجز اخرى عند كيلو ٩٩
ثم عند كيلو ١٤٤

الارض المقرر زراعتها بالجزيرة

وقد تم رى ثمانين الف فدان قطن و ٤٩٠٠٠ فدان ذرة
وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة
والمقرر هو أن يزرع مائة الف قطنا ومثلها ذرة ويقولوا وترك
مائة الف فدان بورا

السبع فتحات المقفولة بقم التربة والمسطح المتروك بالترعة
يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

وقد طرأ على بعض ماقى هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق
بالتواريخ التى تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعى نعرض اليها
حين الكلام عن مسروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزن
بعد ملئه للمرة الاولى تبين انها ٨٠ مليون متر مكعب .
والمناشيب المذكورة فيها مذكورة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر
الابيض المتوسط . اما ماورد عن مسطح التربة وكونه يسمح
بتوسيعها عند زيادة الزمام وذلك لان الخزان يتسع لخزن
مياه تكفى زراعة نصف مليون فدان أى ضعف المساحة الحالية
الا قليلا . والسبع الفتحات المقفلة بالخرصانة من فتحات
ترعة الجزيرة يكفى لامدادها هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن ان تنبه القارئ كى يسهل عليه ادراك حكمة تواريخ
الماء والتفريغ الواردة فى هذه المذكرة الى ان زراعة القطن
بالسودان تبدأ فى اواخر شهر يوليو واول شهر اغسطس .
قرع مستوى الماء فى الخزان من ١٤٥٥ وهو الرقم الموازى
لنسوب الفيضان الطبيعى للنهر الى ١٧٢٠ فى النصف الثانى
من شهر يوليو انما يقصد به الى تغذية ارض الجزيرة بمياه
الراحة اللازمة لرى الارض وزرعها قطنيا . ويبقى هذا
المنسوب ثابتا الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمي
ويمكن التخزين . وفى شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين
فى سنار الى مستوى ٢٠٧ ويبقى الى ان تبدأ حاجات مصر
لبناء ازراعته القطن ولتفديته شهر . واد كانت اوتوبه مصر
امرا مقبورا معترفا به من الجميع فقد وجب البدء فى تفريغ الخزان
بحيث تأخذ اراضى الجزيرة كل حاجتها منه ويبقى تصرف النهر
الضيقى وفقا على مصر . والواقع ان حرج اراضى الجبررد المسب
تقل بعد شهر يناير الذى تبدأ فيه البنية الاولى من جنيت

القطن وتنتهى في شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب . وهذه يكفيها ما مقداره تصرف عشرة أمتار في الثانية . فإذا كان شهر يوليو وابتدأت الحاجة الى المياه في الجزيرة لزراعة القطن وابتدأ الفيضان بجعل رفع الماء في الخزان غير ضار بحاجات مصر بدىء في عملية رفع المياه في الخزان من جديد

لكن مسطح ارض الجزيرة يبلغ ، كما سبق القول ، خمسة ملايين من الافدنة أو يزيد . والنية متجهة الى استغلال ثلاثة ملايين منها . فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وتخزان سنار لانكفى ما يحجره من المياه الا ترى نصف مليون واحد ؟ أم ان مشروع الجزيرة ما يزال واقفا في ذهن اصحابه عند رى هذا النصف المليون الواحد من الافدنة ؟

لا هذا ولا ذاك . والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى رى ثلاثة ملايين من افدنة الجزيرة واستغلالها لزراعة القطن الطويل التيلة . والوسيلة الى ذلك في نظرهم ليست تعليه حزان سنار ولكن اقامة حجز على بحيرة تسانا في جبال الحبشة لحجز ما ينزل في هذه البحيرة من الامطار مما ينحدر أثناء الفيضان مع مياهها في النيل الازرق ويذهب ضياعا في البحر الابيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذي يتسع لحجز ٨٠٠ مليون من الامطار المكعبة بكفى لرى نصف مليون من الافدنة فمن الممكن حجز ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا ، ولهذه الغاية جرت مفاوضات جدية بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة انتهت باقامة الخزان

والظاهر ان هذه الفكرة ، فكرة الحجز عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الذين بدأوا مشروع رى الجزيرة في سنة ١٩٠٤ وفي سنة ١٩١٢ . فقد روى لى أحد كبار الفنيين من رجال الرى ان حكومة الحبشة رضت قبل الحرب ان يدفع لها

ربع مليون من الجنيهات اذا ارادت مصر أو السودان اقامة
حجز على تسانا ، فرفضت الحكومتان المصرية والبريطانية
هذا العرض . اما اليوم فحكومة الحبشة تطلب هذا المبلغ جزية
سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع باراضى هذه البحيرة
وقد يتساءل بعضهم : كيف تحجز المياه التى تسقط في فصل
الامطار في بحيرة تسانا مع ان هذه البحيرة هى التى تغذى
النيل الازرق أثناء الفيضان . وماء النيل الازرق في هذه الفترة
مسيب الطمي فيجب ان تكون باهنا مشبعة بالطمى كذلك .
فاذا حجز راسب الطمي في ماعها فزفع هذا القاع وبلغ من ارتفاعه
على نطاق السنين ان طمي كلها . وهذا تسؤل من لا يعرف
مصدر الطمي وطبيعته اراضى البحيرة المذكورة . فهى صخرية
واحة في مرفع جلى . وماء الاسفل الى نهر النيل
اكثر صفاء من ماء النيل في اى وقت من اوقات السنة . فاما
الطمي فيكون من اخلاط ماء الامطار بسفوح جبال الحبشة
ومن احذار الماء المسع براب هذه السفوح الى مجرى النيل
الارزق بعد خروجه من بحيرة تسانا . لذلك كان حجز هذه
الماء في هذه البحيرة منذ نزول الامطار فيها صالحا من الجهة
الفنية غاية الصلاح وكانت خزانا طبيعيا بدعا لرى سهل الجزيرة
ولذلك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر
على ان الحكومة البريطانية كانت تتباطأ في مفاوضاتها مع الحبشة
بهذا الشأن بعد ما بدأ لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة
لا يتعلق بالرى ولكن يتعلق بالافات التى اصاب زراعة القطن
فيها . فقد كانت نتيجة زراعة القطن في اول امره تفوق كل
تصور ، اذ انتج الفدان من السكر اريدس اكثر من خمسة
قناطير ونصف قنطار . لكن امراضا غير معروفة في مصر وما
تزال اسبابها الحقيقية غامضة سرعان ما اصاب النبات
فاضعفت من متوسط محصول الفدان اضعافا جعل حكومة
السودان والحكومة البريطانية تفكر ان في الامر تفكيرا جديا .
ونظرة في الاحصاء الرسمى عن حاصل الفدان في الاماكن

المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارئ بأن الامر يستحق التفكير
بالفعل :-

السنة	الطيبة	بركات	الحوش	وادي النوا
١٩١١ - ١٢	٥٣٢	-	-	-
١٩١٢ - ١٣	٥٦٢	-	-	-
١٩١٣ - ١٤	٣٨٠	-	-	-
١٩١٤ - ١٥	٣١٠	٥٣٩	-	-
١٩١٥ - ١٦	٣١٠	٣٤٨	-	-
١٩١٦ - ١٧	٣٤٧	٣٢٠	-	-
١٩١٧ - ١٨	٤١٠	٢٦٦	-	-
١٩١٨ - ١٩	٤١٣	٣٥٠	-	-
١٩١٩ - ٢٠	٥٦٠	٤٩٨	-	-
١٩٢٠ - ٢١	٣٢٠	٣٥٠	-	-
١٩٢١ - ٢٢	٣٤٦	٣٨٤	٤٣٢	-
١٩٢٣ - ٢٤	٤٩٠	٤٠٠	٣٤٠	-
١٩٢٣ - ٢٤	٢٥٤	٢٨٧	٢٨٨	٨٨ و ٢
١٩٢٤ - ٢٥	٢٣٣٨	٢٢٨٨	٢٣٩٠	٢٠٤٦ و

هذا الاحصاء صريح في الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية
والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن
بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان
بوضع برنامج شامل للمباحث التي يجب ان تعمل
لفحص اسباب هذه الامراض ووسائل علاجها . وتكونت بلنדרه
هيئة استشارية مثلت فيها هذه الجهات الثلاث ، وظيفتها فحص
التقارير الزراعية الخاصة بمشروع الجزيرة واسداء النصيحة فيما
يجب اتيام به من المباحث في العام الذي يلي هذه التقارير
أما مزرعة مباحث الجزيرة الكائنة على مقربة من واد مدني
والمتدة على مساحة قدرها ثلثمائة وخمسون فدانا فقد أمدت بما

يجب لبحث المسائل التي تحسن زراعة الجزيرة . فاقامت المعامل
ليعمل فيها علماء للنظر فيما يفضيه انبحث الكيميائي والنباتي ولاجراء
التجارب الخاصة بانتقاء بذرة القطن التي يمكن ان تصلح في اراضي
الجزيرة من غير ان تصاب بمسايب البرره القديمه به من
الافات .

واكبر طن الفنيسين في الوقت الحاضر ان هذه الافات التي نفست
في زراعة القطن سببها رطوبه الارض بعد ريها ريا صناعيا ،
وان هذه الرطوبة لم يقف اثرها عند توليد جراثيم لانتصيب الاظهر
شجره القطن بل تولدت عنهما جراثيم امتدت الى بذور القطن
نفسه . على ان هذا ما يزال في حيز الظن الى ان تجلو المباحث
العلمية الحقيقه

غير ان تباطؤ الحكومة البريطانية في المفاوضات الخاصة بمشروع
تسانا لم ينهعن مطالبه الحكومة المصريه بزيادة اللامائه الفدان
التي كانت تزرع في الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفا . وقد
بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطاني لمصر على اثر
مفعل سيرلى ستاك باشا في القاهرة مما سنفضله في الفصل القادم .

يوم في جبل الأولياء مشروعات الري الكبرى

كانت زيارة جبل الأولياء ومشاهدة ما تم هناك من الاعمال
لانشاء قنطرة الحجز التي أريد تشييدها لفائدة الري في مصر
خاصة . من أول ما عنت به منذ نزلت الخرطوم . وذلك بأن
الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع . وبأن الاعمال
كانت سائرة فيه على مهل حقاً ولكنها كانت مستمرة في انتظار
طرحه للمناقضة العامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى
اقامته . ولم يقدّم احد باعتراض جدي على هذه الاعمال واستمرارها
منذ انتهت اللجنة الدولية التي بحثت الخلاف الذي كان حاصل
بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم وللكس
والمستر كندى من ناحية والسير مردخ مكدونالد من الناحية
الآخرى . فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية السير
مكدونالد وابطلت ما تمسك به خصمائه في شأن المقاييس التي
اقام هو عليها حسابه وفي شأن توزيع المياه من طريق قنطرة
الحجز بين مصر والسودان توزيعاً لا يضر أولوية مصر
التاريخية . من ذلك اليوم استمرت الاعمال في مكوار الى
ان تمت اقامة خزان سنار ، وارادت الحكومة المصرية الاستمرار
في تشييد خزان جبل الأولياء لولا ان الاموال التي قدرت من قبل
الحرب لاقامة هذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح
كافية بسبب الغلاء الذي عقب الحرب ، وان الحكومات المصرية
التي كانت تتوالى في ذلك الحين كانت في وضع سياسي غير منظم
لم يمكنها من تقرير الاعتمادات اللازمة لانشاء خزان جبل
الأولياء . فلما نالت الحكومات بعد اعلان مصر استقلالها لم

تستطع أحداها الفصل في الموضوع الى ان تولي معالي اسماعيل باشا سرى وزارة الاشغال منذ اواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ . واذا كان معالية ممن عملوا في تقرير مشروعات الري ومن بينها جبل الاولياء فقد قررت الحكومة التي كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير في العمل .

والى ذلك الحين لم تسكر فكرة اعمال خزان جبل الاولياء وتعلم خزان اسوان الحال عليه ثانية قد وجدت انصارا في الحكم ولا كنت قد وجدت انصارا اقوياء خارج الحكم . لذلك كان طبعيا ان اتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير اذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خاليسا يومئذ . لكن اشتغال مواطنينا القائمين بامر جبل الاولياء بالسفر سرى ناسا ورر الاسفل لم يجعل احابة على هذا ميسورة . ففطمت السلاية بأم درمان وانطرب انى يوم السبب الذى لى وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ، وفي هذا اليوم أعددت عدتي للذهاب مع مفتش رى جبل الاولياء محمد بك صبرى شهيب الذى تفضل بدعوتى كى اصحبه في سياسته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة واربعين كيلو مترا الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اخترت بعد ان اثبت جس قاع النهران القاع صخرى عندها فلا يحتاج الى تقفات جسيمة يجب اتفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعدا كبيرا . وكانت قد دارت بخاطر السر ولهم ولككس حوالى سنة ١٩٠٩ فكرة انشاء نطرة الحجز على النهر بين الخرطوم وام درمان لتغنى في الوقت نفسه عن اقامة جسر بين عاصمتى السودان . لكن هذه الفكرة اهلكت لما كان يترتب على الحجز من اتساع مسطح المياه اتساعا يضر البلدين جميعا ضررا جسيما

كنت اود لو استطعت بدل الذهاب في السيارة ان اركب السفينة التى يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء ، لكن قيامها في منتصف الساعة السادسة صباحا



وكانت عربة القطار التي يحلها السيد المرغنى أكثر حيـاة
وبركة من ضريح

وخشيتي عدم النكح في النصف عدلا بي عن هذا المل . فلما
استعصفت في انصياب النفس الوقت منكرا مما جعلني اود لو
وحدثت يومئذ لا خفا من موافقة المسافر على ظهر السر .
وراء هذا الجبل عذتي ما كان من صحو السماء ودفء الجو
ونفردت نصف في قول اسحر اعدائي . لكنني بعد قليل من
التفكير واما ما اراد في سرور مني ما جوي من دعاي
الملك عذب ففعلت ان اراد ان يفر مني من ان يفر مني
استبدت في كسبه اسما من النصف . ر . من هذا المثل
كتب في حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
سارح النصف المحسن من الارض اسما من النصف
ووصلت من مسيري في حبه الذي في حبه الذي في حبه
ارجائه وجمعت في هذا . سارح النصف الذي في حبه
سبه من حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
نصفه اسما من النصف الذي في حبه الذي في حبه
لا تلج ركبتي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
ربع سبه . ويحب اعدائي من حبه الذي في حبه الذي في حبه
في حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
في حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
اسحراء

بعد كانه اسحراء . ! فمررت من اسحراء كسبي ففعلتها
اسحراء من حبه الذي في حبه الذي في حبه الذي في حبه
الاسحراء . المصنفه عند محط من نمره ١٠ اي حبه ١٠
لكنه مع ذلك رسال في حبه الذي في حبه الذي في حبه
الحسن . سبه . به بعض الاسحراء ان اسحراء به غير مصطفه
كسب الاسحراء وعطيتها سحير يدعونها « اسحراء » اسبه
سبه في اسحراء على الارض في قسام لون ورثها وفي
صمنا الموحس لا يحميه من ولا حبه ذلك اسحراء الذي
تقوم في جانب كسب من مفاير الارياف . وفوق هذه الرمان

وبين تلك الشجيرات ظلت السارات في انطلاقها بسرعة
وظلنا لا نرى انسا مدى ساعه ونصف الساعه . وحتى هذه
« الكلات » المائمه في بعض « الديم » والمبنية من الطين . لم
يقم حولها رجل ولا امرأة . ثم بلغنا قرية جبل الاولياء . وهي
اقرب للكفور والعزب منها لقرى الرف . بل اقرب للكفور والعزب
الصفيرة منها الى العرب الكيرة . . ومن قبل ان نمر بهذه القرية
تدعى امامنا جبل قليل الارتفاع هو الذي سميت باسمه القرية .
وهو جبل قاحل من حجر جبرى كسسه السمس المحرمة لونا
كالج .

وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التى اقامها الحكومة
المصرية للمهندسين والعمال الديين سيقومون بالتسييد
ومراقبته . وفى هذه المستعمرة منازل عدة وبها مستشفى وقد
زرعت فيها بعض الاشجار . وسرنا بين هذه المباني التى
اقصبت من حجر الجبل الى ن وصلنا مقر نفس جبل الاولياء
ولعلك ان اردت ان نستوضح منه صورته موفى الى ذلك اذا
كتب سيد راب بعض دواء الهندسة في مراكز مصر و
بعضا من مبادئ المحاكاة الجبرية في هذه المراكز

دخلت الفيض وحاء الموطون فادأبى في وسط مصرى خاضع
واذا احد هؤلاء الموطون كاتبكم اما لهر اسمه على صفحات
الجريدة المصرية على معالاب الفكر والجماع . ثم رأى جبل
الاولياء ووزاره الاسطول اكبر فائدة وجدوى من صناعة القلم .
وجعل صبرى بك يترقى اوراق التفتيش زمنا . ولما اردت ان
اقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم
عاد يخبرني ان المهندس المقيم مستر ثيبر (This Resident Engi-
neer Mr. Tabor) يفضل أن تزور المباني التى تجاور الخزان وان
نشهد مكان الخزان وان نرى الاستعداد للتشييد وما حوى
هذا الاستعداد من تجارب هندسية كى اتمكن بعد ذلك من
ان اطرح عليه ما اريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجز مارين
في طريقنا بسكك حديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال
.. ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء جديد للنفتيش
يشرف على النهر ويمكن للمفحص ان يرى العمل اثناء سيره وان
يرافقه مرافقه ديمق : ولدت سمي هذا البناء منزل الخزان .
ومن عند هذا البناء سلكنا من حديد قمع وضع فوقها حجر
المحور كما يسمونه ومنه يرى الانسان على ساطىء النهر
حجرين على خط مستقيم معهما موضع بداية البناء عند كل
ساطىء . وعلى حجر المحور هذا اسماء الرابرون ان يكتسوا
اسماءهم . وعليه كتب اسمى انا ايضا ملما كبون .

واحدنا من عند حجر المحور الى بناء النفوس الجديد والى
شاطىء النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه فلما كنا عند
الشاطىء لفت نظرى حوض كبير فى الارض بنى من احجار الجبل
فسألت عما هو . فاذا السير موريس فتر موريس المهندس
الانكليزى العظيم فى شئون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقة
ليبدى رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت احجار جبل الاولياء
صالحة لاقامة قناطر الحجز منها وأن ضروريا جلب احجار الجرانيت
من ناحية مكوار أو ناحية أخرى أقرب منها . وقدبنى هذا الحوض
من حجر جبل الاولياء وعلى بالماء لمعرفة تأثير الماء فيه ولتقدير قوة
مقاومة القناطر التى تبني منه . ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد
ابدى الخبير الفنى رايه بأنه يفضل بناء القناطر من جرانيت وجد
على مسافة أربعين كيلو مترا من جبل الاولياء ويتقضى نقله نفقات
غير قليلة ، لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة
أعمال هندسية لها صفة الدوام كقناطر الحجز تحزن مليارات الامتار
المكعبة من المياه ذات الضغط الشديد

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند
شاطىء النهر لتغذية بعض أعمال البناء والهندسة القائمة هناك
والى جانب هذا الصهريج امتد فى وسط النهر جسر ضيق لا يتسع

لاكثر من شخص واحد يسير عليه وصل بين الشاطئ وورشة
عوامه سمعا منها أصوات المطارق التي كانت تعمل لانام معدات
الباخرة كسلا الواقفة الى جانبها فوقفت بعد خطوات من الحسر
هتبه وأجلت البصر فيما حولى. أين أنا الآن ؟ هذا هو النيل
أمامى أراه كما أراه فى دمياط وفى المنصورة وفى القاهرة وفى
أسسيوط وفى اسوان . وهذه شمس الشتاء الدافئه فوقى
تبعث من خلال السماء الصافية البديعة الصفاء أشعتها المحسنة
التي تتعاون مع الماء لبعث الحياة فى انحاء الوجود . وهذه هى
الباخرة كسلا تقوم بالعمل لاعدادها جماعة من احوالى المصريين .
وهذه الاراضى المتسعة حولى اشبه فى طبيعتها السهبية رغم
قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادى من مصر الى حلفا وإلى
الخرطوم تقوم فوق اراضيه المتبسطة جبال لانزيد على جن
الاولياء ارضياعا . وهاتم لى سودانى الذين حلف
بالحرصم يسمون انفسه التى تختم بها وديون على الاسلام
ويسمون كما انفسهم بما سمى محمد يعرف العرب عنه ويعرف الرومان
ويعرف العرب . السب اذن فى معنى الطبيعة . اسس هذا
انضم لمحمد بن وصى الى من مواضع والمعنى . بما وصى به
سميت ارضه بصر . ومحمد بن حجة على ان النيل المحسن
لن من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة . فكل
من ان راعى هذه الضفاف اخوان يجب ان ينعموا احساروا
بغير انفسهم

وسمى قوس الجسر الى اورشليم العرب . وارضها فوق مسطح
الباخرة كسلا . وسمى احمد بن وصى . وارضها الى النيل
المندمين ومسمى رضى . وارضها . وارضها . وارضها .
النيل الابيض وكانت فى مسد الحوض تجدد غرقها وسطوحها
وتعد اراحة المسافرين عليها راحة كاملة . والشئ الذى تمتاز به
هذه البواخر الصغيرة التى تسير فى اعالي النيل غرفة كبيرة من
السلك يقيم بها المسافرين لقيهم ومسل ناموس الملايا بهم .

والمسافرون لجأوا في الساء الى هذه العرفة نهارهم وبأروى الى
اعرف العاديه ساء الليل . اما في الصيف فالعرف العاديه
لا تحتم لئلا ولا نهارا . عند ذلك تصبح غرقه السلك هذه
هي الماوى وهي للنجاء اليوم كله

وعندنا من حب انسا وعادرت وراءنا كذا في اورسه العوامه
رضه من الماء واحوس الذي سى من الخروار فيما الساعى حتى
وصبت الى ورسه كبيره . وورب حواط من السح وفان ناعم
على رورباجماعه من المخر من . وهذه الورسه مسعدده لكل
ما يحتاج الامر اليه في اعمال السسد وانشاء .

ورجعنا الى نفس الرى وعالمب مسر نبر المهند من المقم
الدى بلدى الى . عند نساور الحيه . تمام اسعداده لاجابى
عن كى ما اريد ان اسأل عنه في سبور الخزان لفسه . من
« اما الاعتبارات السياسيه فيست من سالى ولذلك لاجواب
لها عندى »

وقبل ان تبدأ الحديث اطلعنى على خريطة الخزان الذى يمتد
— بعد تمام بنائه — من جبيل الاولياء الى الدويم . ولما كانت
هذه المنطقه تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه اثناء الرمال مما
يسهل تصوره كان اول ما سألت المهند من المقيم عنه اذا لم يكن
الخزان في هذه المنطقه من وادى لبس مضعا كميات كبيره من
المياه خصوصاً وان ارتفاعها في النهر مده التخزين يجمع تسعها
على الرمن اكبر . ومن سار ذلك ان يريد كميته المسرب خلال
ارمن ؟
فكان جوابه :

« لقد ورد مثل هذا الخاطر بنفس الندن فحصدوا هذه الارض
قبل البت ببناء الخزان عليها . فقاموا باجراء تجارب اقتنعهم ان
الارض صماء لا تتسرب المياه لئلاها اكثر مما تسرب خلال ايه
منطقه جبليه . وما نزال نحن موالين اجراء مثل هذه التجارب
وكل ما نقوم به منها يزيدنا اقتناعا بصلاح المنطقه للخزان .
من هذه التجارب انا حفر ابارا كبيره على ساطىء النهر ما بين

جبل الاولياء والدويم وتركناعده لآبار ارمانا طويلة . وقد لوحظ
ان هذه الآبار لا تتأثر بالعصف ولا بالبحار . فارتفاع الماء
فيها وغيضانه منها لا تلامه له . به ارتفاع النيل وانحطاسه .
وهذا دليل على ان تسرب الماء هذه الارض ليس سيرا كما
قد يبدو للظرة الاولى . وراه اقتسما بصلابة الارض وعدم
قابليتها للتسرب ان المدا في هذه الآبار لم يكن يرتفع وينخفض
وتعاضد نسبة واحدة ولا في اوقات واحدة . فمن هدد الآبار
ما كان يرتفع مؤد أثر من غيرد ومنها ما كان ينخفض فيه الماء
بنا ما يرال غده يرتفع الماء فيه . فضلا عن ذلك كله فان ارتفاع
ماء في هذه الآبار لم يصل يوما الى الارتفاع الى مجازاه ماء النهر
ولو يزد وما على ان كان ماء سبع كما يرى في امة منطقة غير
منطقة جبل الاولياء وكما يرى بعض المناطق الجبسة الصخرية
« هذه واحدة من التجارب . وتجربة اخرى اثنا وضعنا سطوة
نحاسية ارتفاعها خمسة امتسار عمودية على هذه الرمال وملانها
بالماء . وتركنها اياما طويلة فلم ينقص الماء فيها اى نقص مما
يدل على ان الرمال لم تشرب منها شيئا

« واكثر من خمسين تجربة من هذا النوع اجريناها وكلها دلت
على ان ارض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من
تسرب الماء خلال الارض ولا من تشرب الارض للماء . فاذا لوحظ
الى جانب ذلك كله ان مقدرة الارض على التشرب تنتهى كما
تنتهى مقدرة الماء على اذابة اى مادة قابلة للذوبان - كالسكر
والمالح - تطفى فيه . وان فمضان السيل في هذه المناطق يرجع الى
الاف السنين لم يبق امامنا موضع للرؤية في ان نظرية التسرب
نظرية لا اساس لها »

لم اجد ما اعترض به على هذه الاقوال ، ولاحظ ذلك مستر
تير . فانتقل من مسألة التسرب الى الحديث عن جبل الاولياء
ووظيفته الحقيقية فقال :
« تعلم ان مصر بحاجة الى اربعة عشر مليارا من الامتسار

المكفة من الماء لأمكان رى كل ما حكن ربه من اراضيها الغامة
 لزراعتها . وحران اسوان الحائى لا يحجر اكبر من ملبارس وصف
 ملبار . وخران حبل الاولياء لن تقوم بحجر كمرة اكبر مما يحجز
 حران اسوان . ولا سبل الى الحصول على التسعة الملاارات
 التسعة اسداد حاجيات مصر المائية في مستقبل غير
 بعد الا اخرون على البحيرات الاسوانية التى تنبع منها النيل
 الايض . وهذه هي مشروعات الرى الكثرى التى تفكر و تخطط
 زمان طويل - من ايام كان السرد لسلام حارسين مستشارا
 وورد لاسعد المقرية . المندمحرته في المناطق الاسوانية
 لا يصل الى مصر قبل ثلاثة اشهر و ثلاثة اشهر ونصف . فلا مفر
 من هذه من وجود حوض مطم يحجز عنده كميات من
 الماء كافية للحاجات العاجلة ويمكن ان يصل الى مصر في
 اسبوعين و ثلاثة اسابيع ذلك انه اذا جلبت اسوان الماء اللازم
 لمصر من بحيرة البرت التى سيكون عليها الحجز العام فمن
 اسراحت ان تمت هذا الماء للحاجات التى ستطر في مصر بعد
 ثلاثة اشهر او ربعة . وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون
 من هذه الحوادث . ففى انما ثلاثة اشهر او اربعة قد يزل من
 انما من ماضى احسنه ان ماضى اخرى ما عني مصر عن
 هذه هذه . ففى هذه احسنه . حاله ماذا لم يكن هذا حوض
 مستديم . ان الماء سيقب من البرت لاسوان مباشرة - صططر
 رجاء الرى الى بواب هذه المده مصر بحجر الايض المتوسط
 و تسعة هذه . واهله من مملكات "بحر اس" هي "البحر
 ر" الى الماء تسعة مستديمه انما من عند الحبيبة فاما
 مع وجره حران حبل الاولياء . انما من تحت مصر الماء
 الى من . بالحجر هذا من على حيرة البرت فستتفقد
 طب مصر لا مفر منه من حيرة الى اما بعد لاسوعين
 ان الثلاثة الاسابيع هذه مستديمه من بين الاربعه الى اسوان .
 و يعرف حاجت بلاد ليبيا بعد خمسة اشهر يوم يسر كثيرا من

تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ففرض ضياع الماء في البحر
الابيض المتوسط تكون في هذه الحالة اقل بكم . وهذه هي
الوظيفة الحقيقية الدائمة لخزان جبل الاولياء . هو حوص منظم
أكثر منه خراب . لكنه سيكون خرابا لى ان يتم تعديل مجرى
البل في منطقتي السدود واقامه الحجر على بحيرة الرب .
وطال الحديث بنا في هذه السطور لم سكرت المسر سر
وخرجت واستحابتا المهندسين المصريين الى حب تناولنا طعام
الغداء في دار اخدمهم بحسب الاولياء وبركيا هذه المستعمرة المصرية
التي لا تظهر امام العين أكثر من مستعمرة صغيرة تكفى خمسون
ألفا أو مائة ألف من الجنهات لاسائها والتي يقال مع ذلك انها
اسفرت نمائمه ألف من الجنهات . ركنها عائدین الى
الخرطوم حيث وصلناها ساعة أذت الشمس بالمغيب .

آويت الى الفندق ورأى مشغول بمشروعات الرى الكبرى ،
هذه المشروعات التي لم تسفل بال مصريين ملما سفلته منذ
سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها
وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت
مفاتيح النيل في يد غير دمصر . فلقد علت الصيحة يومئذ
بأن مصر كانت منذ الازل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطيته
المخصب ، فمن الغبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء او
بعضه عنها لزراعة القطن او غير القطن في السودان ، ومن الغبن
وضع تصرف النيل الذي كان دائما بيد المصريين في ايد أخرى
تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة للتهديد مصر في حياتها وعيشها
لسبب ولغير سبب . لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية
وكانت متهمه بالفرض الداني من ناحية أخرى ، وكانت سياسة
سيئة كذلك .

ومع ان المصريين جميعا اشتركوا فيها اندفاعا وراء
المهندسين الذين قاموا بها وفي مقدمتهم السير ويلم ولككس

والمستر كندى الانكليزيين فاننى اشعر اليوم شعورا عميقا بانهم لم تكن صحيحة موقفة بحال من الاحوال . كانت مناخرة لان منروعات الرى الى قامة الصحة فدها لم تكن بنت الحرب ل الحرب كانت عطلتها . ولم بدأبحها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بعثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانسانها قبل الحرب بسنوات . مع ذلك لم يعرض عليها احد ولم ينكر احد ما افادت مصر من انشاء خزان الفناطر الخيرية ومن انشاء خزان اصوان وتعليبه كما لم ينكر احد حاجه مصر للماء اذا ريد التوسع فى رى المساحات القابله للزراعة فيها . فالبدء من حيث هو يقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة . وطريقة لتنفيذ وصعت فى سنة ١٩٠٩ وبدأت اعمالها التمهيدية فى سنة ١٩١٢ وكان هؤلاء المهندسون الذين اقاموا الضجة فى مصر يشغلون وظائف هندسية كبيره ومع ذلك ظلوا جميعا لايروع احد منهم صوتا . وكانت هذه الصحة مهمه بالغرض الذى لا سر ولا كسر ومستر كندى لم يعترض كما تقدم الا حين ساءت الحركة الاستقلالية لثوره بعدما سفل السر مردخ سكندرياد بالاسراف فى الكسراف على مصر مع لحررة من عبر ان يتركوا واياها فيه مع . كان لهما من المقام فى الاعمال الهندسية مصر وللسودان . ركبت سياسة سئله لادها امتدت حجة منذ سودانيين بان المصريين يريدون الاسرار بختات النيل وحدد مع ما يعلنون من اهم يعتبرون اسودان ومصر مطرا واحدا . فصلون ان يهدر مياه النيل فى البحر الابيض المتوسط على ان ينفع بها غيره . ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين انفسهم . ذا قام المصريون وقام السودانيون ببناء القناطر اللازمة لى حجر الماء للانتفاع به بدل تركه يسيل الى البحر الابيض المتوسط .

اشعر اليوم شعورا عميقا بان هذه الصيحة لم تكن موقفة صحيح ان اولوية مصر فى الانتفاع بمياه النيل اولوية تاريخية ثابتة لاسبيل الى انكارها ، لكنها لا تؤدى الى اكثر من حق مصر فى استيفاء

حاجاتها من ماء النيل قبل غيرها . وما دامت المياه التي
نفيض من النيلين الأزرق والأبيض يمكن حجزها والانتفاع بها لنوسع
مصر الزراعي ويزراع السودان اسلاد الواقعة على شواطئ
النيل ومن الحرمة في حين مضر في حين هذه اسلاد الماخورة لها
والمصنعة بها . وفي حين هذا في حين الاستعداد . ان لا يغفل
هذه المسألة التي انبسطت ولا تستبعد منها مصر والسودان
وعبر السودان القارة الى مصر واستخرج اعزور نتيجة ممكنة
والتي تفيد الصناعة وغير الصناعة من القوى الكميّة في انحدار
ميد النيل مما تستطيع الوسائل العلمية استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبغت ليست كافية لرى القابل للزراعة من
ارض مصر والسودان وغير السودان وجنوب مصر . من جعل
من كثير من الاراضي الاحمرية الصحراوية واحاب وجنوب مصر .
وما دام العلم قد سخر اساس روى الطبيعة من الجبل ومن
السخافة ان لا يستغفوا من سبغهم استغفروا من هذه
القوى

ولست يريد في سبيل الدلائل على هذا ان اصل افكارى في
بيداء الارقام والمكعبات . فلسف يمدد وانظر اقراء اسودا
مهندسين . ويكفينى ان اذكر ان حاجات مصر الحالية للماء
المخزون تعادل مليارين ونصف مليار من الامطار المكعبة . وحاجة
السودان الحالية تعادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون
كذلك . اما مياه الفيضان فلاحساب لها لانها اضعاف مضاعفة
عن حاجات مصر والسودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكنا
ان يحجز فضلا عن ذلك ثلاثة مليارات ونصف في بحيرة تسانا
ومليارين ونصف عند جبل الاولياء (او عند اسوان اذا
امكنت تعلية الخزان ومأوه) واربعة وعشرين مليارا في بحيرة
البرت امكن القارىء ان يتصور ما يمكن زيادته من المساحات
المنروعة في مصر والسودان . وعند ذلك يشعر معنا بعدم
توفيق تلك الصيحة التي اندفع الناس لها وراء انتقادات السرى
ولكنكس ومستر كندي والتي كانت ترمى الى غرض اخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر في ذلك من اولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة . وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية ان يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورها من منابعه . وقد كان ذلك متبعاً الى آخر الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقوقهم الطبيعي في الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان في هذا المطلب أدت مع الاسف الى منارعة انكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتماً على اولويتها في الانتفاع بمياه النيل . وبلغ النزاع - منه على امر مفيل السر الى سالك اساساً حاكم السودان العم بالقاهرة . ففسد ذهب الخسرا في ادارتها الذي وجهه لحكومة مصر - اراح ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على امر هذا الحادث الى انكار اولوية مصر التاريخية والى ان ايدت حكومة السودان في اباحة زراعة ماتورد زراعته في سهل الجزيرة من غير حاجة الى ان يتم بين هذه الحكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة . ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر باولوية مصر التاريخية في الانتفاع بمياه النهر . فلما هدأت الاحوال بوء . ان للتفكير السليم ان يحل محل المحلة التي اندفعت اليها انكلترا في تقرير سياستها بمصر على ان ذلك الحادث دلت من هذه الفقرة من اذارها ، وقررت اولوية مصر في الارفاق على مياه النيل في وثيقة رسمية ، واتفقت على ان يحدد لجنة المساحة التي يمكن زيادتها على الثلاثمائة الف فدان المنزرعة قطعاً وان تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب ان يكون تصرف هذا النهر كله وفقاً على مصر فلا يكون للجربة الاماحز من الماء في خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التي كلفت القيام بها . والمفهوم ان الاتفاق تم على ان تزداد مساحة مشروع الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف . والحجة في ذلك ان خزان سنار يكفي متى ملئ لرى نصف مليون من الافسدة

وان ملأه لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر من زيادة المساحة خمسين ألف فدان أخرى . والمفهوم كذلك انه قد تقرر ان بدء حاجات مصر لتصرف النيل الأزرق كله يقع في اول يناير في السنين العادية وفي ١٨ ديسمبر في السنين الواطئة الفيضان . وعلى ذلك يجب البدء بتفريع خزان سنار في هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذي اشار اليه الفئ بك في المذكرة التي اثبتنا صورتها الفصل السابق

وقد اعترف لمصر في هذا التقرير بحقها في مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار . لكن تفاصيل الوسائل التي تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد . وهي لا تعنى فيما اعتقد غير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادئ المشار اليها بصفة مؤقتة بعد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التي تستطيع مصر ان تستفيد منها . ذلك بان انشاء خزان جبل الاولياء كان امرا مقررنا يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور في حساب احد ان توقف الاعمال فيه لاعادة النظر في صلاحه ام في افضلية تعلية بناء خزان اسوان على انشائه . لكن الحكومة التي عقت حكومة زيور باشا (وهي حكومة عدلى باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل في جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت اى الاثنين افضل : انشاء الخزان المذكور ام تعلية خزان اسوان . والى ساعة كتابة هذه السطور ايضا لم تحضر اللجنة الدولية التي قررت الحكومة انتدابها منذ ستة شهور ، بل لم تدع هذه اللجنة للحضور ، بل لم تجمع المعلومات والبيانات التي تمكن اللجنة من الفصل فيما يراد منها ان تفصل فيه

ولست فنيا في شؤون الهندسة والرى لا قطع في الامر برأى . وهذا الموضوع لا يدخل في نطاق كتاب وضع عن عشرة ايام قضيتها في السودان . لكن ما اخذت به نفسى في مقدمة الكتاب من ان

أوجه خطا كبيرا من همى ومن عنابى الى هذه المسألة الخطيرة
التي لم تنح في مصر كما لم تنح في السودان من شوائب الشهوات
السياسية ، والتي كانت سببا لنشر دعوة تنير بين المصريين
والسودانيين العداوة والفضء جعلنى أخشى ان يكون الحلاف
في مساهة اسوان وجبل الالاء مسوبا بهذه الشهوات السياسية
بنا كان واجبا ان يظل في دائرة البحث الفنى الصرف وان يترب
عليه ما ترتب على الصفحة العامة التي قامت في سنة ١٩٢٠ بزعامة
السبر وليم وكنكس والمستر كندى والتي انهمت بما اتهمت به

والراى عندى ان مشروعات الرى التي تقام على نهر محسن
كبير كالنيل ليست معاقل سياسة يرجى من ورائها اخضاع شعب
من الشعوب ولكنها تحويل في الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية
وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللتان تستفدان
من هذه المشروعات ، بل تستفيد منها الانسانية جمعاء فائدة
عظيمة . وما دام صحيحا ، اقتصاديا ، ان كل زيادة في الانتاج
الزراعى او المعدنى او الصناعى تحدث في ناحية من الارض تفيد
الانسانية جمعاء فمن الجريمة ان تستغل اسباب هذه الزيادة
لشهووات سياسية وسيان كانت هذه الشهوات في امر مشروعات
الرى على النيل ناجمة عن مطامع انكلترا او عن مخاوف مصر .
وامام المصريين مثل في قنساء السويس وموعظة . لقد حورت
هذه القناة الطبيعة لمصلحة تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء
الناس طرا . وبالرغم مما اثارته من الشهوات والمطامع السياسية
التي اضررت بمصر فقد افادت مصر من القناة فائدة مادية وفائدة
معنوية كبرى . واذا كانت لم تفد لى ما كانت تستطيع افادته فلبس
الذنب في ذلك على هذا التحويل الصالح للطبيعة . بل الذنب على
الظروف الخاصة التي احاطت بالاجيال الحاضرة والتي نهبتها
لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلية

ومشروعات الرى الكبرى تحويل للطبيعة من هذا النوع .
فالتبيعة تجعل مياه النيل تجدر بها الامطار في فصل معين
من السنة فتساق في مجراها لتضيع في البحر الاضرموسط
واذا امكن ضبطها للاستعمال بها في فصول السنة المختلفة . كان
ذلك خيرا لمصر والسودان وللباس جمعها في افطار
الارض المختلفة . ومدعولح سبط هذه المياه منذ قدماء المصريين
وعولج في القرن الاخير بجاح . فمن اجريره عدم ضبطها اليوم
ولديا من وسائل لعلم ما يمكنه ذلك

واذا كان واجبا ان يعن امالى من غير المهندسين هذا الراى سمل
هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترموا انفسهم ويريدون
ان يستروا علمهم لمنفعة وطنهم وخلاصة الاسانينه ان يعلنوا
آراءهم الفنية في هذا الموضوع وفي كل موضوع يعتقدون صلاحه
وفائته . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال ان يحلطوا اعبارات
السياسة باعتبارات الفن . فاعتبارات السياسة وقتية
واعتبارات الفن دائمة . والسياسة ظروفي تنتهز ولكن العلم والفن
مبادئ وقواعد تقدر . وقد يبدو لك امر من الامور السياسية
اليوم في لون فاذا هو بعد زمن قصير في لون آخر . وقد تحسبك
مستطيعا ان تحكم تصريفه سياسيا فاذا تقديرك انقلب عليك
غدا فاضطرت الى البحث عن تصريف لذلك الامر جديد . ومثل
هذه الشئون الدائمة المور مع الحياة لا يصح لعالم يبحث مسئلة
من المسائل المتعلقة بها علمه ان يدخلها في حسابه . انما عليه ان
يقول في طمانينة ضمير وطهارة ذمة ما يعتقد حقا عليه لعلمه
وحده ان يقوله . ويجب عليه لذلك ان ينسى ساعة ابدائه الراى
انه امة ضعيفة وان ينظر في الامر لذاته لا للظرف السياسى المؤقت
المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية

اهون على المصريين في مشروعات الري الكبرى منها في أية مشروعات أخرى . فالسودان ومصر وطن واحد في الحقيقة . واهل اصوان اقرب الى حلفاء منهم الى القاهرة . والروابط التي تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان تضععتها احداث السياسة يوما فلم تفضيها . ثم هي لن تضعيها الا الى اجل . وذلك الاعتبار اصح اليوم منه في كل يوم مضى . فالامم في الغرب والشرق تتقرب بعضها من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان . وكما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية . واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التي أدت كثرتها الى ما يعان به العالم منذ الحرب الكبرى من ازمات اقتصادية فمعنى ذلك ان ما أقيم في الماضي من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بمعرض بحث هذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب . لكننا نورد ما وردنا لنقول انه اذا وجب على رجال العلم ان يطرحوا جانباً اعتبارات السياسة في أبحاثهم فذلك اوجب في بحث مشروعات الري الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأوبية يوم بحلفا وبشلال حلفا

عدت من حبل الاولياء مساء وقد اعتزمت السفر بالفطار
الخاص الذي يروح الخرطوم صباح الغد قاسد حلفا . ودار
في نيتي ان اتناول طعام العشاء ثم احزم متاعى وآوى الى مضجعى
لاستريح من عناء هذه الايام التى قضيناها بالسودان فى مثل نظام
الجند حلا وترحالا . لكن عزمى لم يتحقق اذ الفيت جماعة من
اصحابنا الذين دعونا الى الشئ بالمكتبة القبطية امس فى بهو
الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا
بالخرطوم مقاما بين اهل واصدقاء فأمضينا شطرا من الليل تناول
حديثنا فيه شتى من شئون السودانيين والمجهودات التى تقوم
بها حكومة السودان فى سبيل تعميره ليكون مزرعة من ابدع
مزارع القطن فى العالم . واهل السودان قسما : عرب وزنوج
فاما العرب فيمتازون بدقة فى قسماات الوجه وبرقة الشفاه
وارتفاع قصب الانف . وهم ينقسمون افخاذا وعشائر ك شعوب
شبه الجزيرة . اما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه
غائرو الاعين . وهم يقيمون اغلب الامر فى داخلية السودان تحت
امرة سلطان منهم ما تزال نفسيته نفسيتهم وروحه روحهم . وبرغم
امتداد الحضارة الى الخرطوم والى ام درمان عن طريق اهل
الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع
خاص اذ يمتون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات
بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ، فان داخلية السودان

ما تزال في شبه الحياة البدائية لى يقصون مثل قصصها عن عاشوا في مجاهل الارض منذ آلاف السنين . قص احد الذين حضروا معنا في هذه الامسية انه كان مسافرا الى وجاف في المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزوج وطلب ان يحظى بالثول في حضرة عظمتيه وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ، وكلهم في خدمته ، فلما حظى محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عطمنه من الهدايا بعض المربا وبعض الورق المفض الذي تلف به قطع الحلوى ، فكان اغتباط عظمتيه بهذه الهدايا عظيما ولعله امر لمن قدمها بشيء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون اخرون شيئا من مثل هذا القصة فاذكرنى ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذى صوره فى كثير من كتبه والذى جعله المثل الاعلى للسعادة وودعه ان تعود للانسانية الى احتذاء مثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضى روسو بمثل عيش هذا السلطان وجنوده . ثم سرعان ما زالت ابتسامتى حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزوج وسالهم واحقارهم الحساة واقدامهم على الموت طائعين . زالت ابتسامتى وتخيلىت روسو منتصرا يقول : « ارايت يا صاح انهم سعداء لان معطام الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم اسباب العظمة الحققة التى تصل الانسان بالطبيعة وتجعله جزءا منها سعيدا بها مطمئنا اليها . وهم سعداء لان العلوم والفنون لم تخذعهم ساس زخرفها ولم تزين لهم من الوان اللهو متاع القرور ، ثم هم سعداء لانهم يعيشون عيس البساطة فكل ما سالونه من خير يزيدهم سعادة . فلم لاتعيش الانسانية عيشهم فتطرح وراءها هذا الزخرف الباطل الذى نسميه الحقائق والعلوم والفنون والذى لايزيد على انه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وامسكت عن الاندفاع في هذا التفكير حين اضطرت لمشاركة اخواننا المتحدثوا عن مصر واحوالها وسألونى عما اعتقده مصر ما تم بين احزابها من ائتلاف . والحديث في السياسة كحديث الافاعى

يطول . فاستغرق كلام اخواننا في مصر وشئوننا بقية سهرتنا .
ثم ودعوني واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعي ساعة الرحيل
من الخرطوم

وتنفس صبح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمسها سماء السودان
الصفية الاديم وتناولت الشاي واعدت متاعى وذهبت الى قاعة
الطعام للافطار ثم خرجت من بهو الفندق الى حديقته انصغري الى
تفصل بين سياج الفندق وبنائه . والقيت عند الباب سيارة كبيرة
وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لنقلنا جماعة
ضيوفا الى المحطة في طريق عودتنا الى مصر . وتخطيت التسارع
والقيت نظرة على صفحة النيل الازرق وتلفت حولي اودع هذا
النظر الذي ألفته وألفنى اسبوعا كاملا . في هاته اللحظة دب الى
نفسى احساس يخالجه كلما فارقت بلدا احتوانى وأنا في شك
من العودة اليه . واحساس الفراق يمتزج فيه الالم بالامل ، والخوف
بالرجاء . وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل
هو الا انهيار ما نفارق في لجة مالا نرى وما لانحس الا خيالا
وحدسا . في هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا
بأفاق قريبة لاتزيد على مدى ما تصل اليه حواسنا . وهو
انهيار مخوف في لجة الزمن الذي لا يذر العالم لحظة من غير مور
ولا تجدد . ومن يدري ما تكون الخرطوم وام درمان والسودان
ان قدر لى ان اعود اليه بعد سنوات ؟! هل أجد هذه الاشياء
التي ألفت والتي اصبحت جزءا من حياتى كلما خلفتها ؟ ام ارى
مكانها شيئا جديدا اسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق
عندى ان كل ما نرى وكل ما نحس وكل عاطفة تهز قؤادنا وكل فكرة
تجول بخواطرنا هي بعض حياتنا القصيرة التي تنقضى بعد ان
تصبح هي الاخرى بعض حياة الوجود الازلى الابدى .
ولئن كان كل ما يصيب المادة يترك فيها أثرا لا يزول -
على حد قول هربرت سبنسر - فما اشك أنا في أن كل ما يصيب
حياة الوجود يترك فيها أثرا لا يزول

دب الى نفسى الاحساس بالفراق حين رأت السيارة
الكبيرة التى أعدت لنقل المتاع والسيارات الاخرى التى أعدت
لستقلها المسافرون . ومن شأن الظروف التى تحيط بنا ساعة
الفراق ان تجعل هذا الاحساس مبهما . فنحن ساعند في شغل
بمناعتنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظرنا في سفرنا . وكنا جماعة
المسافرين من الخرطوم اسد ما يكون سفلا . فهذا يحجب عن
بعض ريس النعام هديه اسد فاء في مصر او في غير مصر . وهذا
قد نسي بعض ما ابتاع أمس في مخزن مقرر اليوم - يوم الاحد
ويريد ان يدرى الوسيلة للحصول على ما يبيع . وهذا يقل مباعه
فما يدرى كيف يحزمه . ورجار السواكيس وسائقو السيارات
يسمعون المسافرين لىتهى واحبهم . وأحسيرا سدرن
السيارات بحرق بنا طرق الخرصوم داردادت نفوسنا
احساسا بمعنى الفراق . ثم انطلق اعطاري في منتصف الساعة
الاسعة تقطع الطريق الى نطفاها ابن من حفا حتى يبع
عظومور أى حمد عند ما ارجى النى سدو له . هاشما حله في
منتصف الساعة العاشرة من صباح بعد . ونحن ساعنا من
القطر الى الباحرة برسانا الى كان مفررا ان تسافر في اول
المساء . فلم لك بد من انمضى النهار حلقا .

حلقا لد صغى اسبه سناد المراكى في مصر فلس وسبه
ما سوقوف الطير . وحكومه سودا حد حرمسه على ان
لا سهر ضوفها سىء من المنزل . لذك نضم به سباحه صغيره
والصباح الى معسكر حلقا كما نضم بهم برهه بعد سارل طعام
العداء على طهر الباخره يزورون فيها شلال حلقا ويشهدون منه
منظرا من أعجب مناظر الطبيعه وأكثرها جلالا ورهبة .

ومعسكر حلقا ، والى جانبه بيت كتشنر ، يقع على نحو ثلاثة
كيلو مترات من محطة وادى حلقا . لذلك ركبنا اليه قطارا
سار بنا حتى كنا حذاءه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من
الامريكيين لم يكونوا بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلقا للترهه

بعد ان قضوا في فندق السلال باسوان زمنا غير قليل انسحبوا معه بعشر منظر اسيران . والامر يكون سبب جديد حقا . فالامر يكي لا يشعر به بمقد بما يشعر أهل العال القديس بانهم مفيدون به من عادات ومن قواعد السلوك في حركاتهم وفي ملابسهم . ولقد لسا منظر سائب سري في سراويل النساء وينعل حذاء ثقيل غايه البعل ويردى فوق اكفه جاكه وصدره عجب شكلهما . ولم يكن الانكليز ممن معا اهل مناسا دهسه لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسير مع سيدة نصف ورجل معدم الى الكهولة ، عرفت فيما بعد انهما ابواه ، وان هذا الكهل استاذ باحدى الجامعات الامريكية . واتصل بيني وبين هذه الاسرة حديث طويل ابدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاوربيين ومحافظتهم مثل ما ابدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد . ومع هذا النقد المتبادل وصل السفر بين الجميع فجعل كل يقضي الى أصحابه بما رأى وكيف تأثر به .

معسكر حلفا فضاء واسع من ارمال لم يبق من آثاره الا قوس فخم لمخناه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصرى التى جاءت مع مصطفى فهمى ومع كتشنر من بعده لفتح السودان . على انالهم تقصدا بدى الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذى أصبح سامتا وكان من قبل معسكرا لرجال الحرب وعدته ، بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة او ما يشبه المحافظة كل ابوابها مربعة وليس في عمارتها ما يلفت النظر . وانتقلنا من هذه الدار الى دار اخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا اول ما دخلناها بانها في نفوسنا ذلك الزرع الناضر والحضرة الباسمة القائمة امام المنزل والممتدة الى شاطئ النيل . ونقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف انصحراء حوله ، واخذ بمجامع افؤاد انفساح النهر وقيام كنبان الرمل وراءه متموجة بين سعود وهبوط كأنها بعض موجه حين الفيضان . وكان للشمس فوق هذا المنظر وفي ذلك اليوم

من أيام الشتاء سنا يأخذ بالابصار ثم أدركنا عيوننا الى ناحية هذا
المنزل الذى شهد من تدابير الحرب والسفك ما شهد والذى
اصبح اليوم صامتا صمت مصطفى فهمى وكتشتر فى حجب الغيب
وان كان على خلافهما ما يزال معرضا لعبث الحياة ولتدبير
الحرب والسفك : ثلاث غرف سميت ماكنه من الذكرى لاجمال
فيها الاجمال ما شهدته من غزوه وادام . ثم يكن الدين افاموا
فيها قواد الجيش المخرى بناس الذى نفذ الحفظ لى وصعب
بسجاعة وجرة سجد له على الساريح وحرا حالدا ؛ وعلى طاهر
جدرى احدى الغرف نفس الذى لندرا افاموا فيها واحموا
مع الجند ما احملوا من مصص وصحبة . ولى جانب الموحه
زير قديم من الفخار لعلة فى مساسه بانه اصلب على الحياة
من اولئك الذين سربوا من مياهه ولم سقى بهم اليوم على الحياة
غير الذكر . والزر لا ير بايما تجده الانوار ويود اصحابها
سربه من مياهه . وعلقت الابصار بدهد الانار وجاهد كل مصور
يريد ان يخذ منها رسما برغم معاكسة الشمس له . على ن
الانصار لم يكن بالحديده وبالنهر ركبان الرمل على ساطئه الساري
افل ولعا . فكنت ما بكذ نسفرتلى الباء برهه حتى تعود ليجلى
من هذا المنظر البديع المجدد على الرمان ما يجدد الرمان جمانه
انساحر وسحره الفنا .

وخرجنا الى فضاء المسكر القديم والى القوس الباقى
من آبره . وذهب البعض بخيالهم الى ذلك الساريخ
اعريب حين كانت الجنود الذاهبه من حلقا الى الخرطوم تقف
فى هذا المسكر الى ان تتلقى الاوامر بالاندفاع فى تيه العظمور
لانشاء سكة الحديد او لسحب السفن بين احجار الشلال . وبقي
اخرى سعادا بالجو الجميل حولهم وبالصور التى كان يأخذها
المصورون لجماعتهم . وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعندنا ادراجنا
الى القطر الذى عادينا الى محطة حلقا حيث نزلنا عائدين الى
بريتانيا .

ونلنا من الراحة مانلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغداء
سفينه أخرى سارت بنا جنوبا نحو ساعة . فلما بعدنا عن حلقة
بيضة كيلو مترات تبدت أمامنا مقدمات الشلال ، فانتشرت في
لجة النهر اكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة
بأدى الامر فللماء من خلالها فريضة ينفذ منها . لكنها كانت
يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحمت
او كادت وحتى لم يبق للماء امام العين الا مسارب تقف عند تنوء
صخرى قريب . وملاّت اكام الجرانيت ما بين الشاطئين وترامت
الى مرمى النظر والى غاية الافق متموجة في لونها الداكن كأنها
ظهور قطيع ضخم من الفيلة مات كادت تتحرك أو تتلوى الا بمقدار عبت
الضوء بها وانعكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من
الجرانيت ابصارا تلمس التماسيح التى خرجت الى رمال الشاطئ
تنال دفء شمس الشتاء المحسنة قال الأمريكى ذو السراويل
البيضاء :

- لقد جننا امس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعا كبيرا
تمدد كل واحد من افراده على الرمل وفغرفاه الى الشمس
يستشفى بأشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذى اقلنا من حلقة الى زورق وتوهمويل
ليتسرب بنا فى تعاريج القنوات التى بين الصخور ، والتى لا تتسع
لزورق اكبر منه ، كى نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر
منها بالشلال كله . وفى لجه نور الشمس الساطعة سرى بنا
الزورق وكاننا فى لجة ليل بهيم قامت بين اكمتين سوداوين
وامامك على امتار اكمة سوداء نائلة تكاد تتصل بهما وتقطع
الطريق او يرتطم السارى . وتلمس مسارب الماء بين ماتمر
به من اكام الجرانيت فيرنه بصرك ولم يفدك شيئا . ثم اذا الزورق
انحرف فجأة ليحاذى الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد
يحاذيها حتى تنجم امامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كتلوى
الشعبان فى مسارب الارض . ولم تمض دقائق فاذا بنا فى عابه



في تان اغتباط السلطان بالمرايا والوديق عظيمها

كثيفة من صخر رهيب مخوف . لكن روح الجماعة في طبعها المرء
 مالم يلجمها الوجل او يستثرها الغضب . لذلك ظل اصحابنا
 تلتصق اعينهم التماسيح التي فص عليهم الساب الامريكي
 امرها . فاذا خدع احدهم بصره وخيل اليه انه رأى تمساحا
 لم يبين ان لا تمساح الا في خياله تبودلت النكات من جوانب الزورق
 عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذي كاد يلقى بنا في
 النهر وعن فكه المرتفع ليلتلعنا ، ولم يكن مخدوع البصر اقل
 نصيبا في النكات من غيره . وماذا لانمرح ومعنا الدليل الذي
 قص علينا انه يتسرب بقاربه في هذه اللجنة عشرات المرات في كل
 شهر ومعنا التوبيخ من اهل هذه النوادي يفخرون بانهم يعرفون
 مسارب الشلال اكثر من معرفتهم اذقة قراهم . ثم ما لنا لا نجد
 في هذا المنظر الرهيب موضعا لمسرة وبيننا سيدات وفتيات
 في شبابهن المتورد الوججات ما يصيء الحاك ويبدد الظلم وهن
 برهة هذا المنظر معجبات بل مبهونات

وطال بنا تسرب الزورق و لويه من غير ان نحظى بتمساح
 واحد من سرب صاحبنا الامريكي حتى انتهينا الى الشاطئ عند
 اسفل القمة العالية . واسرعنا جميعا لسلقها ، وما كدنا نبلغ
 منتصفها حتى شاعر كثيرون التعب . فالقمة رملية تفوق
 فيها الاقدام غوصا وتحتياج . اجل ذلك الى مجهودين :
 تخلص القدم من الرمل ، ثم لساق للغوص به في الرمل من
 جديد . لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب .
 والطفولة لا تشعر بتعب ولا بمشقة لذلك أسرع الاولاد والبنيات
 وأسرع الشباب والسبات الى راس القمة . وفي النفس الانسانية
 وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز . وكم كان
 عجا منظر شيوخ وعجسائر هدم التعب واضناهم الكلال
 ثم لا يريدون ان ينظر اليهم الجيل الذي بعدهم وكأنهم أضعف منه
 حولا أو أقل حيلة . انظر الى هذه العجوز الباذنة المترهلة
 البيضاء الشعر كيف نلثت لكنها مع ذلك تسعين بنوبى

يصل بها غاية القمة لتكون مع ابنائها وحفدتها بما يخيل اليها
أنها بمك الحياة ملكهم وسمتع بها استمعاهم . وهى كلما
غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت زمنا تسترد قلبها أولا
وتنتشل قدمها بعد ذلك . وما كنت وما كان غيرى ، ونحن نطل
عليها من أعلى القمة ، نحسب أنها بالغة ما تحتل كل هذا الجهد في
سبيل بلوغه ، لكن الإرادة القوية غالبية أبدا . وبارادتها نغلبت هذه
السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا في أعلى القمة تمتع طرفها
بنظر الرهب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليها من
فوق السفين الذى جاء بنا حتى أبواب الشلال ، وما أصغرنا نحن
الآن فوقها ! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشبات
جوانب الأرض في مصر وانكلترا وأمريكا وإيطاليا وغيرها ، حول
بضعة أحجار منشورة فوق رمال هذه الاكمة ، فإذا هو من قلة
الكم بما لا يلمحه عين من ظلوا فوق السفين . لكنه مع قلة كمه
صلة ما بين هذه الاقطار الشاسعة التى يتكون العالم منها ، وهو
لذلك روح هذا العالم الذى نعيش فيه . فمنه يستمد العالم
ادق ما في حياته وحركته ، وهولذلك صغير عظيم ، لكن عظمته
ليست في أفراد بل هى في الروح الانسانية الخالدة التى تعظم على
الزمان كل يوم بما نرت على الزمان من سلطان والى تزداد
عظمة بما تشتمله من الوجود فى سلطانها وبما تذيبه فى الوجود
من نفسها .

وإذا كنا صفارا فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنا والاكمة
ليست منه شيئا مذكورا . مددنا الطرف نريد أن نجتلى غاية الشلال
وأحجاره فارتد دون هذه الفاه وقد ملأته الاكام الحجرية الناس
فى الماء رهبة ، وأجلناه فيما حولنا من كثبان الرمل المهيلة ،
فأخذته وأياها الى الأفق فى موج للاء تحت أشعة الشمس
المنحدرة الى المغرب . ونخطبنا به النهر فادا بعض اشجار بحى
فى هذا المحيط العابس جيدة الابتسام ، ثم ثبتت زمنا فوق
اكمام الجرائب الباهية فى الماء حط بها فوانه الضيفة فما
يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذى تسرب بنا خلال الشلال
الى حيث ارتقىنا القمة التى نل الان من فوقها . وبدأت على

الوجوه علائم الدهشة والاكبار لهذا المنظر العجيب ، فساد الصمت جمعنا حيناً . ثم بدأ الجمع يتدرك القمة عائداً الى القارب . يا عجباً ! ما اكثر ما يتغير منظر هذا السرب من القسلة الجائمة في الماء ، فكلما تدرك الهابط سفح القمة بدت تحت ضياء جديد فاخذت صورة غير صورتها ، فبعض يزداد من بعض اقتراباً وبعض يزداد عن بعض بعداً ، وكذلك تتغير المحسوسات بتغير موقفنا منها ، فماذا يكون شأن ما نسميه الحقائق في هذه النظريات من تصورات الذهن وأبنية الخيال ؛ وجلست اثناء هبوطي على حجر جاثم فوق الرمل وتلفت حولي فلم أر أحداً بالقرب مني اذ كان كثيرون ما يزالون بأعني القمة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب . وجعلت أناجي نفسي : ماذا تكون من هذا الوجود العظيم ! وما حياتنا الثائرة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجي تبدو حكمته في سكونه ما حولنا وطمانينته . واتى لفي نجواي اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهي تلهث في نزولها كما كانت تلهث في صعودها . لكن ابتسامة على ثغرها كانت تعبر عما يدور في خاطرها من عظيم القبطة لانصارها على ضعف الشيوخوخة واقناعها بذلك نفسها انها ما تزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيذ وعدنا الى زورقنا فعاد يتسرب بنا بين صخور الشلال حتى السفينة التي ظلت في انتظارنا . وعلونا سطحها والشمس تتأهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التي سارت بنا قبيل العشاء . وفي الايام التي قضيناها بها حتى أسوان عادت الى خاطري صورة الشلال وصورتنا فوق الربوة نجاهد ، عبثاً ، لنحيط بكل حدوده رغم ما نزع من الاحاطة حتى بحدود المجهول . لكن هذا العجز الذي يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاخترنا في خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءاً بعد جزء . وهذه الخيالات المختزنة هي قوتنا وذخرينا في الحياة وهي الميراث الذي تتعاقبه الاجيال فيزيد الانسانية سلة بالوجود وسلطانا عليه .

وبلغنا أسوان صبح الاربعاء وبلغنا القاهرة صبح الخميس ، فعدنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة ايام قضيناها في ربوع لا تعرف الشتاء .

مصر والسودان

لا أستطيع أن أختتم هذا الكتاب من غير أن أتناول علاقات مصر والسودان بكلمة . وليست غايتي من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية . فلعل القارىء قد أدرك من خلال الفصول السابقة أنى لم أثار فى أية مسألة من المسائل التى عرضت لها بأهواء السياسة أيا كانت . وإنما وحيته ما يمليه العدل وما تقضى به المصلحة الانسانية العليا الى لا تقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزها لما يمكن أن يستفيد العالم كله مما فى هذه البلاد من خيرات . وإنما غايتي أن ابين أن خير السودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التى تستفيد منها انكسرا قبل أن تستفيد منها أية امة أخرى إنما يتحقق على وجه اكمل كلما ازدادت مصر والسودان ارتباطا سواء من الجهة الاجتماعية او الجهة الاقتصادية او الجهة السياسية وكلما تعاونوا من طريق هذه الرابطة الوثيفة فى سبيل ترقية مصادر الاناج المادية والمعنوية فيهما .

ولست أريد من أجل هذا البيان أن ادلل على أن مصر والسودان مرتبطان تاريخيا بروابط قديمة تجعل من حق مصر أن تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالالزاس واللورين . ولست أريد كذلك أن أقيم الحجة على ما أنفقته مصر فى السودان من مهج وأموال وأن أرجع الى التاريخ لاي سبب من الاسباب ، فالتدليل التاريخي فى مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التى تحتاج الى قاض للفصل فيها والقاضى فى العلاقات التى تربط

الدول بعضها ببعض هي المصلحة الحاضرة التي يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى أسانيد التاريخ ووثائقه ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجرائن من أجزاء وادى النيل ، وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح ، فليس كمصر بلاد معلقة حياتها بنهر واحد ، وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة للنيل ، ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء ما بين المحيط الاطلانطيقي والبحر الاحمر ، لذلك كان هم المصريين في كل الازمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر ، فكل ما تأثر به مياهه من ظروف الطبيعة أو من عمل الانسان تتأثر به مصر ، وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله في ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه ، ولا نظن المصريين فكروا في امر من أمور حياتهم تفكيرهم في هذا الماء المخصب المحسن الذي يحيى اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جروفه

فاذا كان أكبر هم المصريين متجها الى الجنوب وكان اكثر تفكيرهم في الصلات التي تربطهم بجاراتهم النيلية وفي توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم حبا في الفتح أو اندفاعا وراء شهوة الاستعمار التي تجرى وراءها كثير من الامم بل هو الحرص الطبيعي على الحياة حرصا أصيلا في سليقة كل حي وفطرته

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لموقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معناه أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما ، ولكن كان السودان منبع الحياة المادية التي تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هي منبع الحياة المعنوية التي تفيض على السودان مع فطر الحصار أنا كان مصدره ، وكما يحيط الصحارى بمصر فتصريحها على ما يعيدها النيل به من

مياهه كذلك تحيط الصحارى بالسودان وتفصله عن مصادر الحضارة ، ولقد بالغت الطبيعة في ذلك حتى ليحسب الانسان حين ينظر الى خريطة النيل أن حوضه عالم مستقل فيه كل ما تحتاج اليه الحضارة من أدواتها وأسبابها ، ولقد فتحت موانئ على البحر الاحمر لنصريف تجارة السودان ولجلب التجارة اليه ، لكن هذه الموانئ لا تصلح ولن تصلح لتكون باب الحضارة والعمران ، بل كانت الحصاره وكان العمران يهبطان الى السودان من طريق مصر أكثر مما يهبطان اليه من أى طريق آخر . ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هو المهجر الطبيعى لمصر تحمل اليه من أسباب حضارة العالم ما يشره بنصيب في هذه الحضارة .

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة في الماضى . فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول ففسد من حضارتها ونفيدها من الحضارة لقويته . ولذلك كبرا ما اتصلت الحروب بين مصر والسودان لاستقاء الصلات الطبيعية الى يجب ان يشعر السودانيون والمصريون جميعا بمحاربة اسباب ضعفها لا بالمحاربة في سبيل وصلها . على ان تقدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الارض جعل الغزو والفتح منظورا اليهما بعين المفت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما . وكلما ازداد العلم تقدما وازدادت الشعوب بعضها من بعض قربا وتمتنت الروابط العقلية والعنوية وتحطمت الحدود والحواجز زادت اسباب التعارف والتفاهم واصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظورا اليها بعين المفت والازدراء مثلها اليوم بين الافراد والطوائف . ويومئذ تكون بين شعبين متجاورين اوبين شعب واحد يقيم في بقعة من بقاع الارض يسر العلم اسباب الرغد فيها شيئا عجبا وامرا نكرا . ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محل التنافس . ويكون بين الشعوب المجاوره التى تصل طبيعته بينها اقوى رباطا وامن عقدة . ثم تكون كل الاسباب الصناعية الطارئة على هذا الضامن والمفسده اياه موقوفة مرهونة بالروال

لا مفر اذ من أن يكون هذا النضام بين مصر والسودان على القواعد التي مضى بها ظروف الحصار في الوقت الحاضر .
وادوات هذا النضام كثيرة اسرنا الى بعضها حين الكلام عن مسروعات الري الكبرى . فهذه لمسروعات يجب ان لا تراعى فيها الا الاعمارات الفنية التي تؤدي الى حفر اكبر مقدار يمكن حفره من ماء النيل لانتفاع الاراضي الزراعية الواقعة على شاطئيه من اول مصر ذات الاولوية لتاريخيه في هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل . كذلك يجب على مصر ان يكون المبع الذي يجري منه اسباب الحضارة الى السودان . فبسر الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لان المصريين اكر العناصر امراجا بالسودانيين منذ احيال طويلة . ولئن كان هذا الامزاج قد افرس في احيان كثيرة بعناصر سينه من جانب او من الجانب الاخر فانه خلق بين السبعين من الاواصر ما ييسر التفاهم بينهما الى حد كبير . والحضارة اذا مرت بمصر كان يسرا ان يسيغها السودان بوسبب هذه الاواصر . فاما اذا حملتها الى السودان عناصر اخرى ولو كانت من امم اعلى من مصر في الحضارة كعبا فانها لا تتأقلم في السودان بمثل السهولة التي تتأقلم بها حين تحملها العناصر المصرية . ولعل الاسباب التي ادت في الماضي الى عدم نجاح مصر في حمل هذا التعب الانساني في السودان ان الدين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية ، وان المصريين الذين كانوا مرعوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلا يستطيع ان يقدمها لغيره . واعتقد اعتقادا اكيدا ان مصر تستطيع ان تعاون السودان في هذا المضمار معاونة جدية اذا وجد من المصريين ذوي المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير أية فكرة سياسية بل بدافع النضام تحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها اعلم ان اعتراضا عمليا له قيمته يقف في هذا السبيل .

ذلك وجود الإنكليز في السودان وقيامهم بالحكم فيه . وهم اعراض صحيح اذا كان الإنكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار فللإنكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان أهمها القطن الذي يزرع فيه . ولعل المواصلات الامبراطورية بهن هذه المصالح كذلك . لكن الإنكليز لا مصلحة لهم في اعاقا عدم السودان وبعضيره . وكلما تقدمت الحضارة في السودان وكل اهمه أفدر على الاستفاده من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا في سوق العالم العامه من جوانبها الخلفه . ولاكلرا في هذا مصلحة اى مصلحة . ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت في الماضي ان تقف مصر وانكلرا في السودان موقف الخصومه فاعده ان الإنكليز والمصريين قد أدركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ولصر وللسودان جميعا . فمن الحكمة - وهذه هي الحال - ان يقدروا وجوب اتجاه السياسة في المستقبل الى غير ما كانت عليه سياسة السودان الى اليوم وليس نظام الحكم في السودان هو المشكلة العويصة في رأي . واعتقد أن من الممكن التفاهم في هذه المسألة بين مصر وانكلترا على أن تكون السودان ومصر متحدتين بينهما مثل نظام ال «federation» فيكون لكل في المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعا في المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقرر قواعد وليس المقام هنا مقام تحديد أو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه . فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيرا . واحسب ان مثل هذا النظام في مرونته وقابليته للتحويل يستطيع أن يحقق غايات الاطراف المختلفة .

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد أن يترك النظر في مصالح انكلترا وامتيازاتها في السودان الى حكومة السودان نفسها لتحلها في حدود المسائل المروكة بموجب عام الاتحاد لتصرفها . ويخيل الى أن حلا كهذا قد يتون من شنه ان ينهى مسألة

معلقة لا فائدة لأحد من تعليقاتها وإن يحل إلى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الرى الكبرى وكحضر السودان وما إلى ذلك مما يقيس السودان ومصر على السواء من غير أن يسأ عنه صرر لاية مصلحه من المصالح

وإذا كان المؤتمر الإمبراطورى البريطانى قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المسفله مع الكلترا وأن يكون رباطها جميعا ولاءها للنجاح وذلك لمصلحة الإمبراطورية البريطانية ولفائدة السلام فى العالم ، فإن مثل هذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول إلى حل مسألة السودان حلا موافقا لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيها

ولهذا الحل مزايا يعود أكبرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا ينكر ، وهو فى نفس الوقت يكمل لانكلرا أن يحصل من السودان على المصالح والامتيازات التى ترمى إلى تحصيلها من غير أن تضطر لحمل عبء المسئوليات المستقبلية التى تحملها اليوم فيه وأول مزايا هذا الحل أنه يحقق ما يريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين ، من غير أن يجنى ذلك على عزة أى منهما ، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثر بعبائده وعقائده واعتبارات القومية الخاصة ، وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين ، فالذين يريدون هذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات فى مصر والسودان ، وخصوم الاندماج ينكرون وحدة الجنس ويذهبون إلى أن السودانيين غير المصريين وإلى أن طوائف العرب فى مصر وفى السودان لا تكون سواد الشعب فى أى بلد من البلدين وإنما هى أقليات جاءت فى عصور الفتح الأخيرة ، وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون إلى أن تطور الحضارة فى مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو أن شيئا من الوحدة كان موجودا فى الماضى بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم ، وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحا أم باطلا فهو لا يغير من العلاقات الطبيعية التى بين القطرين والتى أشرت إليها

من قبل ، وهو لذلك اذا أمكن حدلا أن ينهض عائقا في سبيل
الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقا في سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسرى والولايات الامريكية المتحدة ليس بن الولايات
الى يكون منها أى من مذهب الاتحاد من مثل ما بن مصر
والسودان من شبه أو علاقه ، انما تصل هذه الولايات روابط
المصلحة البعنه ، فأما سوى ذلك فمختلف بين ولاية وولاية اخلافا
بيننا . فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة هي
الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة .
ولا تجمع بينهم الا ناحية أخرى ، والولايات الامريكية المتحدة تجمع من
مختلف الامم واللغات والالوان . لكن رابطته الجوار والمصلحة تسمو فوق كل
اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الامريكي قوة قومية وعالية
متقطعة النظر

ثم ان اعتراض آخر يقيمه جماعة من المصريين انفسهم يجعل
الاتحاد وسيلة صالحة . ذلك ان نظام القبائل والعائلات قد زال
من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله
النظام الديموقراطى الذى يجعل الحياة الدستورية هي
الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم في مصر . فأما في السودان
فما يزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسى الذى تقوم
عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة
قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديموقراطى فان
هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل . والى أن ينقضى الزمن
اللازم لتمام هذا التطور فمن العسير ، بل من التعسف ،
اخضاع السودان للنظام الذى تخضع مصر اليوم له .

وتمت اعتبار آخر يجعلنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان
على نظام الاندماج . ذلك ان مصر متهمه في سياستها بازاء السودان
بانها سياسة استعمار لا سياسة تحرير . وهذه التهمة تروجها

السنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل . ولا تكفى هذه اللسن باتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانين بأيام قديمه كان نواب حاكم مصر في السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويضربون هذا المسلك نظاما لحكم المصريين ومع بطلان هذه التهمة امام التاريخ والحق لان هؤلاء الولاة الذين يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من جنس الحكام الذين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد ان المصريين احرص من ان يتهموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقي نحو الحرية . وذلك يتحقق تماما تحت نظام الاتحاد . فيومئذ يكون المصريون الذين يذهبون للخدمة في السودان انما يذهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لا بدافع استعمار وحقه . ويومئذ يجد السودانون الوسيلة للرقى ولتحقيق كل معاني العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانين انفسهم . فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الري الكبرى يزيل من نفوسهم كل خوف من ان تكون هذه المشروعات يوما من الايام وسيلة لاکراههم على قبول ما لا يقبلونه اختيارا او سببا لارغام عزتهم واذلالهم . ويومئذ تتسع الاراضي المصرية القابلة للاستغلال وتضعف في نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل . واذ كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لا ينظرون الا لمصالحهم الخاصة القريبة فان المصريين الذين يذهبون في هذه الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد ان تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التي يتعذر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول . وما نشك في ان هؤلاء سيعاونون على سرعة رقي السودان في مضمار التقدم الانساني مادامت ادوات الحضارة

المادية تشاد فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى اخذ ابنائه
بنصيب في المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء في ارجائه .

ونعتقد ان السودانيين يشعرون بشعورنا هذا ، وأن
الانكليزيين الذين اقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين
في تنظيمه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت
احداث السياسة قد دعت في بعض الظروف الى اعلان سيئات
عن المصريين واعمالهم في السودان فالحقيقة التي لا ريب فيها ان
المصريين كانوا دائما اسد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفاً
عليهم ، وانهم لم يكونوا في السودان تحركهم عاطفة الانانية التي تحرك
غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتي تدفع هؤلاء الى ان يقصروا
نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروة .

وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان
الحاضر . فهو حل يرضى عزة السودانيين ويتفق وكرامتهم
القومية . وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التي
تكلف الحكومة البريطانية مسئوليات الامن والنظام في
السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات بحملها
دافع الضرائب الانكليزي من غير ان يكون لاحتماله اياها ضرورة
ملجئة . ثم هو حل يتفق وتطور العالم في سبيل التضامن السلمى
المنتج لخير الجميع ، والذي اصح حل رويدا رويدا محل
القوة والاكراه والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن
لا يتنافى مع ماتريده انكلترا من تقدم زراعة القطن في السودان
ومن ناحى مشروع الجزيرة نجاحا باهرا . وهو فوق ذلك عين على
هذا النجاح ويجعله اقرب منا لا وقل نفقات بما بطوع للمصريين
من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم اياهم معاونه هي
لا شك خير واجدى من معاونة الفلاتة وغير الفلاتة من المزارعين
الطارئين . ولئن كان المصريون قد ترددوا في هذه المعاونة لما
دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيرة في سنة ١٩١٢



فذلك لان ظروف السياسة كانت يومئذ مغنا للخوف والقلق .
سنا امرار نظام الانحاديين مصر والسودان وما يربط
على هذا النظام من الضمانات لفوس المصريين يزيل كل اسباب
الخوف والقلق .

ونتم اعتبار آخر لا يمكن ان يعيب من فطنه السياسة
البريطانية وبعد نقرها ذلك ، سواد المصريين لا يمكن ان يبداهم
بال اذا رأوا السودان منفصل عنهم . وهم سيذكرون دائما
كلمه وزيرهم شريف ياسا : اذا تركنا السودان فالسودان لن
يرتد ، « وكلمه المستشار الانكليزي لوزاره الاسلحة
امصره : « السودان الرم لمصر من الاسكندرية » . وادا صح
ان مرت فترات من الوفاء حدثت لنا عواصف السياسة
سبب من الاسباب وانصر المصريين للرضى عن
حاجهم سراء لعدم ملائمة اوضاعهم لان المعادة الطاعنين منهم قد
سبب اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم
وئدوهم فان هذه الفترات تكرار بدوم في حياة الامم مادام
تمت ما يدعوا الى ترزعزع الامور فيها . كذلك لا يمكن ان يعيب
عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ان السودان ومصر
بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية رابطة اللغة والعقيدة
والجوار . وهذه روابط لا حود لها عند اى من الدول الاخرى
المناخية للسودان . وطبعى مع عدم الرقى والحضارة فى
السودان ان بزاد عقده هذه الروابط مما به وان ينظر السودان
نصر بمثل العطف الذى يضر مصر به للسودان . ويومئذ لا يترك
اسودان مصر اذا هى بركه . ولا يمكن ان يغيب عن فطنة
السياسة البريطانية وبعد نظرها اخيرا ان فترات القلق اصلح
الفترات للشعوذة السياسية وابعدها عن أن تكون الظرف
الملائم للاتفاق الودى المعقول . فاذا كان ذلك كله صحيحا كان
الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير فى اتحاد مصر والسودان
على المبادئ السابق ذكرها . ذلك بانه وقت سكيته وهود . فكل

اتفاق يتم فيه يتم بعد وويه وتفكير ويكون منبعنا عن اعتقاد صحيح بصلاحة .

ولقد اكدت لى اقامتى القصيرة بالسودان صحة هذا الراى الذى عرضت . فكما ان السودانيين بحاجة لى ان يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة فى اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضر - هذه السيرة التى لا مفر من وصولها الى ايجاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم فى مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض - فهم بحاجة فى هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها اية غاية سياسية ، واذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن فى سهل الجزيرة من شأنه ان يعطيهم فى ذلك ملامح الحافان العارف بينهم وبين الانكليز فى اللغة والجنس والعادات والدين يجعلهم بحاجة الى المصرى القريب منهم فى ذلك كله والسدى درس الانكليز عن قرب ، والسدى لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا ان يمهّد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقا متينا بعيدا عن العثرات والاضطراب .

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

صدر منها حتى الآن

- ١ - آبار في الصحراء - مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى
- ٢ - الضاحك الباكي - احاديث عن الثورة المصرية وذكريات عن الصبا والشباب للاستاذ فكري اباطه بك
- ٣ - الف ليلة الجديدة - اخراج جديد لهذا القصص الفريد في الادب العربى للاستاذ عبدالرحمن الخميسي
- ٤ - نساء من خزف - مجموعة من القصص المصرية المعاصرة للشانق للاستاذ سعد مكاوى
- ٥ - صندوق الدنيا - مجموعة صور فكهة من الحياة للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
- ٦ - فرعون الصغير - مجموعة قصص مصرية مصرية طليسة للاستاذ محمود تيمور بك
- ٧ - الشرق والغرب - مجموعة قصص لصور الحياة المصرية مع مقارنتها بالحياة في بلاد الغرب للدكتور محمد عوض محمد بك
- ٨ - قضايا الحب - مجموعة من أغرب وامتع القضايا التي عرضت على المحاكم المصرية في مختلف بلاد القطر للاستاذ فائق الجوهري المحامى
- ٩ - جيشنا في فلسطين - تسجيل تاريخي لمشارك الجيش المصرى في حملته لانهاد فلسطين من الارهاب الصهيونى للصاغ السيد فرج
- ١٠ - الف ليلة الجديدة - المجموعة الثانية من هذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسي
- ١١ - في الميسر آه - مختار المزايا التي شرت في السياسة الاسبوعية للفيد الادب الشيخ عبدالعزيز البشرى
- ١٢ - غاديات رائحات - مجموعة قصص مصرية منتزعة من صميم الحياة تصور النضال العنيف بين الحب والعواطف الاخرى للاستاذ محمود طاهر جنى

- ١٣ - صانع الحب - مجموعة من القصص الواقعية ، جرت حوادثها في القاهرة وباريس ولندن
للاستاذ احسان عبد القدوس
- ١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية تمثل مآلى الحياة
من مآس وخواتمها للكاتب الكبير
الاستاذ عباس حافظ
- ١٥ - عند ما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية تصور نفسية
المرأة وتحلل غوامضها للاستاذ حلمي
مراد المعامى
- ١٦ - حاجى بابا الاصفهاني - عن جيمس موريه بقلم درسى الشافعى
مجموعة من خرافات فارس واهلها تضحك
اعصى الناس ضحكاً
- ١٧ - جرائم ومرافعات - للاستاذ يوسف حلمي المعامى - مجموعة
من اشهر القضايا الجنائية القوية التي
اثارت اهتمام العالم كله
- ١٨ - الطريق الى السعادة - للفيلسوف الامريكى هنرى لك بقلم
ثروت محمود - ابحاث عملية تجريبية
للتخلص من متاعب الحياة والحصول على
السعادة
- ١٩ - موعد في الجنة - قصص واقعية عن الابطال المصريين الذين
استشهدوا في فلسطين للصحقى المعروف
الاستاذ حلمي سلام
- ٢٠ - نجيب الريحانى - دراسة وافية دقيقة حياة نجيب الريحانى
بقلم الاستاذ عثمان العنتبيل
- ٢١ - صور من الريف : صورة صادقة حياة الريف بما فيه من
نعيم وشقاء ، ومسررات واحزان للكاتب
المبدع الاستاذ محمد زكى عبد القادر
- ٢٢ - الحب في التاريخ - اشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ
سلامة موسى

تمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

تقولات أحدث النظريات العلمية..



- إن الناس يقرأون القصص والروايات
لأنهم يجدون في حياة أبطالها فائزهم بتهديدات
من تجاربهم
- ولما كانت الحياة ليست التجارب وهم يبدون
بذلك في أعمارهم
- وأن تضيف إلى عمرك مئات مقترحات القصص
التي تقرأها في

قصص للجميع

يصدر قريبا

للأعمام

عبد الرحمن الخريسي

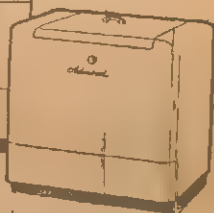
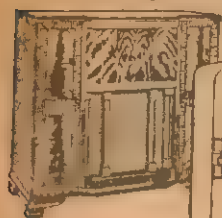
يطلب من مكتبة النهضة المصرية ٩ ش عدلى باشا
ومن جميع المكتبات الشهيرة

توجد اجهزة أدميرال

راديو جرافوفون

لكل ما تحتاج اليه

طهي كهربائي



شلاجة

فرانجات لفظ الأغذية

أجهزة لريو
صفحة



ان ادميرال يعرف طابعك ويعرف صحتك
يشبعها وهو في أحجامه وأسعاره يلائم كل ذوق
ويوافق كل ميزانية. وتعتبر الشلاجة «ديوال-تامب»
ذات الخزنة الداخلية المخبوذة في تصميمها وفتها.
وإذا أنصت إلى راديو أدميرال أعجبك صوته
الطبيعي الخلي كما أن المطبخ الكهربائي أدميرال
الذي يطهي وحده آليا وجبة طعام كاملة جدير
بتقدير ورضاء ربات المنازل. ويتمثل في كل
جهاز من أجهزة أدميرال جمال الصميم وسمو
المن الهندسي وندرة القيمة

أجهزة لتغيير الاطوانات آليا

الوكلاء الموزعون للقطر المصري

مركبة الشرق الأوسط للمسروعات والتوزيع والتجارة
عمارة ايموبيليا رقم ٢٦ شارع شريف باشا بالقاهرة

الكتاب القادم من كتب للجميع

وراء القضبان

للاستاذ أحمد حسين

يصدر في أول ديسمبر سنة ١٩٤٩

١٥٠ صفحة ٥ قروش

بنك مصر

شركة مساهمة مصرية

م.ت. ٢ - القاهرة

رؤسوا الصناعات الكبرى وشركات "مصر"

مركزه الرئيسى ١٥١ من محمد بك فريد "عماد الدين باشا"

يؤدى جميع أعمال البنوك

فروع الاسكندرية - ١٩ شارع طلعت حرب باشا

للبانك فروع ومكاتب ومندوبيات بالهم من القطر المصري

وله مراسلون في جميع أنحاء العالم

قسم مستودع للتوفير يشجع على الاقتصاد والادخار

قسم تأجير الخزن الحديدية - الإيجار بشروط مناسبة



من القاية إلى المصنع
ومن المصنع إلى
كل مكت وكل منزل

فهو ممتاز بالمتانة ووقت الصنع
صناعة مصرية بأيدي مصرية

٣٥ شارع سراسين رقي العارفي - مم
جزيرة سراسين
بلاط ٣٥ شارع سراسين رقي العارفي - مم

كريهي لال الشرق

الحاضر أو الزواج أو المستقبل الحاضر
أو الحب أو العمل أو القضاء أو السفر



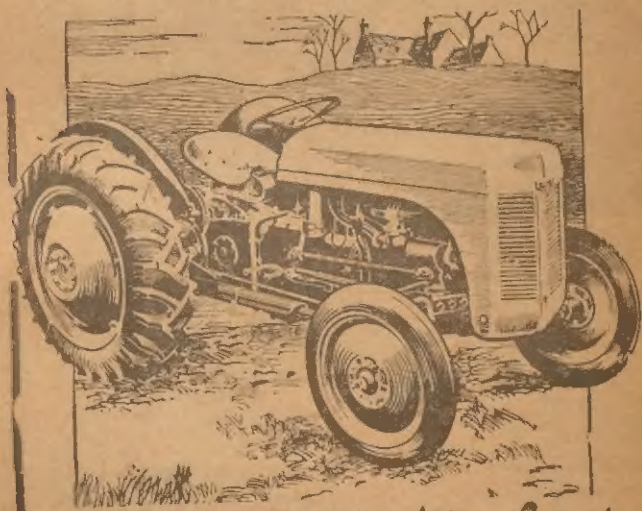
الحبيب

الوصيد الذي نجح في التزويج أمام
البوليس والنيابة والطبيب الشرعي

١٥٣ شارع الملكة نازلي ٤٤٠٢٥ - أمام محطة كوري للميون بومباست ٩ - ٨ - ٨

جرار فيضون

أكثر الجرارات إنتاجًا وأقلها استهلاكًا



يؤدي جميع الأعمال الزراعية

بمجرد اللمس بأطراف الأصابع
كفاءة ممتازة تحت جميع الظروف الزراعية
الوكلاء في الشرق الأوسط

شركة الشرق الأوسط للمشروعات والتوزيع
مسالة العرض ناحية شماعة عماد الدين ودوير بالقاهرة

لواء الإسلام

يصدرها احمدة حمزة
أول كل شهر رجب

صدر اخيرا
العدد الجديد الممتمتاز
عن

الهجرة

اطلبه من باعة الصحف